الفصل الثاني

معالم المنهج الدعوي ووسائله
في القرآن الكريم والسنة النبوية

obeikandl.com

توطئة

إن المستقرئ للقرآن الكريم يلاحظ أنه قد أولى موضوع الدعوة إلى الله تعالى قدرًا كبيرًا من العناية، ولا جرم فالقرآن كله من أوله إلى آخره دعوة إلى دين الله تعالى، وإلى عبادته وتوحيده.

فالقرآن الكريم هو نفسه حقيقة هذه الدعوة، فهو في ذاته وسيلة وغاية في الوقت نفسه؛ وذلك لأن القرآن الكريم يعبر عن الحقائق الدينية الكبرى التي انشغل الرسول ﷺ حياته بدعوة الناس إليها، كما أنه يعرض سيرة الرسل ومواقفهم مع أقوامهم في عرض تلك الحقائق الثابتة التي تمثل حقيقة التوحيد وحقيقة الإسلام وحقيقة العبادة، وحقيقة الطاعة لله تعالى ورسله -عليهم صلوات الله تعالى وتسليمه- كما أنه يعرض في وضوح تام معالم هذه الدعوة وأركانها، ويصور منهج هذه الدعوة من خلال طريقة القرآن نفسه في عرضها، ومن خلال بيان طريقة الرسل -لاسيما أولي العزم منهم- في بيان حقيقة هذا الدين ودعوة الناس إليه.

كما أنه يبين كذلك منهج ووسائل الدعوة إلى الله تعالى من خلال الطرق والوسائل العديدة المتنوعة التي استخدمها القرآن لعرض دعوته وبيانها.

ويلاحظ على هذه الطرق والوسائل أنها كثيرة ومتنوعة سواء من ناحية آلية هذه الوسيلة أو من ناحية طريقة الداعي التي يختارها لتناسب حال المدعوين.

وقد حفلت سنة النبي ﷺ بتطبيقات واسعة لتلك الوسائل القرآنية مضافًا إليها ما شرعه الرسول ﷺ بأقواله.

وسوف نعرض هنا لمنهج الدعوة ولأهم الوسائل التي استخدمها القرآن واستخدمها النبي ﷺ لبيان دعوته، سواء من حيث آلية الدعوة أو من حيث طريقة الداعي ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى.

يقوم المنهج الدعوي في القرآن والسنة على حسن الإفادة من الوسائل المتاحة للدعوة في كل عصر من العصور وفق معطيات هذا العصر، وما تقتضيه تحدياته وتفرضه ظروفه وقضاياه الراهنة في الوقت نفسه كذلك.

ولعـــل قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[1] يتسع بشمول منطوقه ومفهـــومه لإعـــداد جمـــيع الوسائل المتاحة في عصر من العصور لنشر الدعوة الإسلامية الصحيحة، ونصرتها والدفاع عنها والتمكين لها.

وإذا كـــنا قد أفضنا القول من قبل في بيان المقصود بكل من المناهج والوسائل، فإننا نـــستطيع تبعًا لما سبق أن نقول إن المنهج ما هو إلا حسن استخدام الوسائل المتاحة، ولقد سبق أن بينا أن الوسيلة يمكن أن تعد من هذه الزاوية جزءًا من المنهج.

وذكـــرنا أن خطة البحث ستقوم على الجمع والدمج بين المنهج والوسائل في دراسة واحـــدة، وذلك لأنه إذا كان منهج الدعوة يقوم على حسن التخطيط لاستثمار الوسائل المـــتاحة والإفـــادة منها على أكمل وجه في ضوء معطيات الواقع وتحدياته، فلا حاجة إذًا للفـــصل بـــين المنهج والوسائل المستخدمة فيه، لأن هذا الفصل سيكون ضارًا بالدراسة والتـــناول الـــصحيح لها، ويكون نوعًا من التشعيب والتشقيق للبحث وفصلاً بين أجزاء الظاهرة الواحدة المتلاحمة وبعد هذه المقدمة الموجزة يمكننا الآن الحديث عن منهج الدعوة ووسائلها باعتبار تركب المنهج من هذه الوسائل.

---

(١) الأنفال: ٦٠.

منهج الدعوة في القرآن والسنة

يقوم هذا المنهج الدعوي في القرآن والسنة على التوجيه نحو الإفادة من كافة الوسائل المتاحة للدعوة الإسلامية والتي تمثل عناصر هذا المنهج ومكوناته ويمكننا أن نقسم هذه الوسائل التي أرشد إليها القرآن الكريم وأرشدت إليها السنة النبوية إلى عدة أنواع حتى يسهل علينا دراستها والنظر في كل نوع منها على حدة.

وهذه الأنواع من الوسائل الدعوية هي:

أولا: الوسائل البشرية:

(إعداد الدعاة)

ثانيًا: الوسائل الآلية الإعلامية:

١-المخاطبة

٢-المكاتبة

ثالثًا: الوسائل التخطيطية:

١-بين السرية والجهرية

٢-بين الفردية والجماعية

٣-بين التدرج والتسرع

رابعًا: وسائل الدعوة من حيث القالب أو الشكل:

١-الموعظة

٢-الخطبة

٣-القصة

٤-التمثيل

٥-المجادلة بالحسنى

٦-المحاجة والمناظرة

٧-الشعر وفنون القول

obeikandl.com

خامسًا: الوسائل الأسلوبية:

١-التأثير العقلي

٢-التأثير الوجداني

٣-التأثير البياني والفكري والثقافي

سادسًا: الوسائل المادية:

١-القوة الاقتصادية

٢-القوة العسكرية

أولا: الوسائل البشرية:

ويعني بها الداعي نفسه، فهو أعظم وسيلة للدعوة إلى الله تعالى، لأنه هو الموصل للرسالة، والمؤثر في المدعوين بطريقته الدعوية وصفاته وأخلاقه وحسن سمته وشمائله.

وقد اهتم القرآن الكريم بإعداد الداعي الأول محمد ﷺ اهتمامًا كبيرًا لأنه الأسوة والقدوة للدعاة جميعًا إلى يوم القيامة، ومن خلال الآيات الواردة في خطاب النبي ﷺ باعتباره الداعي الأعظم، ومن خلال الآيات الواردة في خطاب أمته ﷺ لأنهم مكلفون بالسير على طريق دعوته، واقتفاء أثره من خلال تلك الآيات جميعها نستطيع أن نقف صفات الدعاة وشمائلهم وكيفية إعدادهم وتوجيههم للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد اشتملت سورة العلق ومن بعدها سورتا المزمل والمدثر على بيان كثير من هذه الصفات.

ففي سورة العلق نجد أول تكليف للداعي وهو الدعوة إلى القراءة والتلاوة لتزكية النفس وللتعلم، كما نجد فيها كذلك توجيه الداعي إلى التوكل على الله تعالى والإعراض عن المكذبين والمعاندين وترك طاعتهم وموافقتهم والاعتصام باللجوء إلى الله تعالى، والصلاة والتضرع بين يديه ﴿**كَلا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ وفي سورة المزمل نجد عدة توجيهات للداعي الأول ﷺ وللدعاة إلى الله منها على سبي المثال:

obeikandl.com

١-الاهتمام بتزكية النفس وإعدادها في مدرسة قيام الليل وتلاوة القرآن وترتيله ﴿يأيها الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إلا قَلِيلا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا﴾[1].

٢-الاهتمام بكثرة الذكر ودوام الاستعانة بالله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا﴾.

٣-الاهتمام بكثرة التبتل والانقطاع إلى الله تعالى بإخلاص العمل له، وعدم التعلق بالحياة الدنيا بشهواتها ورذائلها الدنيئة.

٤-التوكل على الله تعالى في جميع الأمور ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا﴾.

٥-الصبر على الأذى والصفح والإعراض عن المكذبين والمعاندين ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلا﴾.

وفي سورة المدثر نجد صفات شبيهة بهذه الصفات وصفات أخر زائدة عليها مثل:

٦-الاجتهاد في النذارة والدعوة إلى الله تعالى: ﴿يأيها الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾.

٧-ذكر الله تعالى والتوكل عليه وإكباره وتعظيمه وعدم الخوف ممن سواه ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

٨-طهارة الظاهر والباطن وحسن السمت والخلق ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2].

٩-ترك المعاصي والآثام وكل ما لا يليق بالداعي بحيث لا يخالف قوله فعله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[3].

---

(١) المزمل: ١-٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير - (٤/٤٤١).

(٣) قال ابن كثير: "أي: اترك المعصية، وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه -أي النبي ﷺ- بشيء من ذلك" [السابق- نفس الصفحة]

١٠-الاستهانة بالجهد، وهضم الذات، والتواضع لله تعالى، بألا يستكثر جهده في الدعوة إليه بل يسعى لبذل المزيد ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾[1].

١١-تكرار الوصية بالصبر لأهميتها بالنسبة للداعي إلى الله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

فهذا مجرد مثال ونموذج لاعتناء القرآن بإعداد الدعاة إلى الله تعالى.

تطبيقات هذا الأمر في السنة النبوية:

امتثل النبي ﷺ تلك الأمور والصفات، وقام بها خير قيام كما حرص أن يأخذ أصحابه بهذا الإعداد الرباني من خلال منهج واضح لتزكية النفس يحسن بنا أن نقف عنده وقفة متأنية لتجليته لأهميته لإعداد الدعاة إلى الله تعالى وقد سجل القرآن شهادته للنبي ﷺ بقيامه بهذه التزكية لنفسه وأصحابه من خلال وسيلة من أعظم وسائل التزكية ألا وهي قيام الليل فقال تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**.

وهناك العديد من وسائل التزكية التي أخذ بها النبي ﷺ نفسه وربى عليها أصحابه سوف نتعرف عليها من خلال عرضنا لمعالم هذا المنهج في القرآن والسنة.

---

(١) قال الحسن البصري: "لا تمنن بعملك على ربك تستكثره"[السابق- نفس الصفحة].

تعريف التزكية:

التزكية: تخلية وتحلية وتنمية.

فالتـــزكية: هـــي تخلي النفس عن الرذائل، والتحلّي بالمكارم والفضائل، وتنمية الخير بشرعيّ الوسائل.

فالتزكية تدور معانيها في اللغة حول ثلاثة معان، هي: التطهير والإصلاح والتنمية.

فتأتي التزكية بمعنى التطهير:

يقـــال زكىّ ماله أي طهره، وزكىّ نفسه أي طهرها من دنسها ورجسها. قال تعالى: **﴿قَــدْ أَفْلَــحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾**(١)، وقال تعالى على لسان موسى لفـــرعون: **﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾**(٢)، وقال أيضًا: **﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾**(٣).

وتأتي بمعنى الإصلاح:

يقـــال زكا الرجل أي صلح، قال تعالى: **﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾**(٤).

وتأتي أيضًا بمعنى التنمية والتكثير:

يقال: زكا الزرع إذا كثر ونما وطاب. قال تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْــمَ رَبِّــهِ فَصَلَّى﴾**(٥)، فمن تزكى أي تطهر وأصلح نفسه وأقبل على الصلاة وذكر الله تعالى زاد خيره، وزكت نفسه، ونمت فضائلها وكثرت.

---

(١) الشمس: ٩-١٠.

(٢) النازعات: ١٨.

(٣) التوبة: ١٠٣.

(٤) النور: ٢١.

(٥) الأعلى: ١٤- ١٥.

obeikandi.com

وبهذه المعاني الثلاثة وردت التزكية الشرعية، فهي تطهير للنفس من أرجاسها وأدناسها ورذائلها، وهي إصلاح للنفس بتعويدها الفضائل وتحليتها بالمكارم.

وهــي تنمية لجوانب الخير في النفس البشرية، وتعهدها وتربيتها حتى تصل إلى درجة ســامية مــن درجات الكمال الإنساني وذلك بالوصول إلى درجة العبودية الحقّة لله رب العالمين.

التزكية أولاً:

ينبغي البدء بالتزكية أولاً وقبل كل شيء، فهي بداية الطريق.

فهــا هــو موسى عليه السلام يدعو فرعون إلى طريق الله تعالى فيبدأ الطريق معه من التــزكية، وذلك بأمر من الله تعالى حيث يقول لموسى عليه السلام: **﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾**[١]. التزكية إذًا هي البداية، وهي الخطوة الأولى في الطريق إلى الله تعالى.

وموســى علــيه السلام نفسه يعدّه ربه سبحانه وتعالى لحمل هذه الرسالة، فيبدأ في تكليفه بما يزكي نفسه أولاً، ويهيئوها لحمل أعباء وتبعات هذا الأمر العظيم.

قــال تعالــى: **﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾**[٢].

وهــذه اللــيالي هي التي أمر الله تعالى موسى أن يجتهد فيها في عبادة الله تعالى، وأن يتقــرب إليه فيها بالصوم والصلاة ففرض عليه صيامها تطهيرًا لنفسه وتزكية لها قبل لقاء ربه لتلقي ألواح التوراة حتى يكون أهلاً لحمل هذا الأمر العظيم، وحتى يأخذه بقوّة وجدّ، وذلك كما قال تعالى ليحيى عليه السلام: **﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾**[٣]، وذلك بعد ما أتاه رشده وزكاة نفسه حيث قال عقبها: **﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾**.

---

(١) النازعات: ١٧-١٩.

(٢) الأعراف: ١٤٢.

(٣) مريم: ١٢.

ولمـــا كان بنو إسرائيل قومًا غلاظًا جفاة قاسية قلوبهم لم يستجيبوا لموسى فيما دعاهم إليه من تزكية نفوسهم وإصلاحها، ولذا لم ينتفعوا بالتوراة ولا بالعلم الذي جاء به موسى إليهم.

بـــل لم يكـــن منهم إلا اللجاجة والعناد، والدليل على ذلك أن خيار بني إسرائيـــل ذهـــبـــوا مع موسى عليه السلام في لقائه لربه وسمعوا كلام الحق سبحانه وتعالى لموســى مـــن وراء الجبل، ومع ذلك قالوا له كما يحكى القرآن عنهم: **﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾**[١].

ثم اخـــتلفوا بعـــد ذلك فيما بينهم بعد ما جاءهم العلم حسدًا وبغيًا من بعضهم على بعـــض، كما أخبر القرآن الكريم عنهم حيث قال: **﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾**[٢].

فرغم أهم كانوا على علم ومعرفة بالحق الذي أنزله الله تعالى فإهم اختلفوا فيما بينهم وحاد أكثرهم عن الحق الذي يعرفونه بغيًا وعدوانًا من أجل معاداة طائفة وموالاة أخرى، أو لأجل عَرَض من الحياة الدنيا.

وأكـــبر دلـــيل على ذلك أهم عرفوا صفة محمد ﷺ في التوراة وعرفوا أنه النبي الحق المنتظر مجيؤه في آخر الزمان؛ ومع ذلك لم يؤمنوا به و لم يتبعوه.

محمد ﷺ النموذج الأسمى في تزكية النفس:

وحيـــنما أراد الله تعـــالى أن يمـــن على البشرية بالهداية وبإخراجهم من الظلمات إلى النـــور اطلع إلى أهل الأرض فاصطفى منهم أزكاهم قلبًا وعقلاً ونفسًا[٣]، وأوحى إليـــه مـــا يزكـــي به نفسه، فتزداد به نفسه زكاة وطهرًا وقداسة، فأوحى إليه أن يتعبد في غار

---

(١) البقرة: ٥٥.

(٢) الجاثية: ١٧

(٣) وفي الحديث عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعـــيل واصـــطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"، والحديث أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

حراء فكان يتعبد فيه الليالي الطويلة ذوات العدد فتقول عائشة –رضي الله عنها: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلى جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو في غار حراء، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق في غار حراء، فقال له الملك: اقرأ! قال: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ! قلت: ما أنا بقارئ!

قال: فأخذني فغطني الثانية ثم أرسلني فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [(١)].

فرجع بها رسول الله ﷺ إلى خديجة ترجف بوادره"[(٢)].

فهذا يدلنا على ضرورة البدء بالتزكية حتى تتأهل النفس لحمل أمانة هذا الدين، وهذا ما بدأ به الله تعالى مع رسوله ﷺ حيث حبّب إليه الخلاء في مبدأ أمره فكان يخلو في غار حراء يتحنث، أي يتعبد وأصل التحنث هو التخلص من الحنث وهو الذنب والإثم، فهي عملية تطهير للنفس بالتوبة والاستغفار وذكر الله تعالى والتفكر في نعمه وآلائه والتوجه إليه بالضراعة والحمد والثناء.. إلخ ما يقرب العبد إلى ربه من صور العبادة وأنواعها.

وكان هذا الأمر ضروريًا قبل تحمل النبي ﷺ أمانة الرسالة؛ وقبل أن يوحى إليه بهذا الوحي المعجز بما يحمله من أعباء وتكاليف ثقيلة حملها النبي ﷺ وتنوء بحملها الجبال.

التزكية أولاً أم التعلم؟

قد يفاضل بعض الناس بين التزكية والتعلم ليجزم بأولوية أحدهما وأحقيته بالتقدم،

---

(١) العلق: ١–٥.

(٢) أخرجه البخاري في "بدء الخلق" (٤)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم في "الإيمان"، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

فيرى البعض أن التزكية أحق بالتقديم على العلم، ويرى البعض بأن العلم أحق بالتقديم، ولكننا نحب أن نوضح أمرًا مهمًا في هذه النقطة يزيل هذا الإشكال وهو أن نبين أن العلم منه ما هو فرض عين يلزم كل مسلم تعلمه لحاجته إليه في عبادته اليومية أو فيما يخصه هو بعينه من الأمور.

فهذا لابد له من تعلمه بنفسه وتحصيله له، وهذا مثل تعلم أصول العقيدة الصحيحة التي تجب معرفتها على كل مكلف، ومعرفة أحكام العبادات اللازمة له كالصلاة والصيام والزكاة والحج ونحو ذلك، ومعرفة أحكام المعاملات الضرورية التي يحتاج إليها ويمارسها في حياته اليومية، ومعرفة ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من الأخلاق والآداب الإسلامية القويمة.

ومنه ما هو فرض كفاية يتعلق بما لا حاجة للمسلم فيه في وقته الحاضر، ولكنه قد يحتاج إليه في مستقبل حياته أو يحتاج إليه غيره من الناس فيجد جوابه عنده، وذلك كمسائل الميراث ودقائق العبادات والمعاملات ومعرفة قواعد العلوم وأصولها كمعرفة أصول الحديث وأصول الفقه ونحو ذلك كالتعمق في علوم اللغة العربية نحوها وصرفها وبلاغتها فالنوع الأول من العلوم، وهو ما يختص بما هو فرض عين على المكلف هو ما يلزم المسلم معرفته والعمل به في مرحلة تزكية نفسه وإصلاحها، ومن ثم فهذا القسم من العلوم لا ينفك عن عملية التزكية وليس هناك مفاضلة بينه وبين التزكية لأنه جزء من التزكية الشرعية الصحيحة لا تتم إلا به.

وذلك لأن التزكية المطلوبة ليست مجهولة الوسائل، وليست متروكة إلى المكلف ليحدد لنفسه الوسائل التي يقوّم بها نفسه؛ بل إن وسائل هذه التزكية لابد أن تكون هي الوسائل المشروعة التي بينها الله تعالى في كتابه وأرشدنا إليها النبي ﷺ في سنته؛ وذلك لا يكون إلى بتعلم تلك العلوم التي يمكن أن نسميها بعلوم التزكية فلا يصح للمبتدئ أن يبدأ بدراسة القواعد والأصول والمصطلحات ونحو ذلك قبل أن يلم بالعلوم الأساسية التي يستطيع من خلالها أن يمارس التزكية الشرعية الصحيحة لنفسه قبل الخوض قدمًا في طريق العلم الأكاديمي.

الدليل القرآني الواضح على ضرورة التزكية قبل المعرفة الأكاديمية:

هــذا الدلــيل نلمح في تسجيل القرآن الكريم دعاء إبراهيم عليه السلام ببعثة الرسول محمــد ﷺ وبيان مهامه التربوية المنوطة به بقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(١).

إذا مــا تأملــنا إجابة الله تعالى لهذه الدعوة وجدنا أن الله تعالى قد أنزل إجابته لهذه الدعوة في ثلاثة مواضع من القرآن لا رابع لها، وهذه المواضع هي:

١-قــوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** (١٥١) **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ**﴾(٢).

٢-قــوله تعــالى في ســورة آل عمران: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾(٣).

٣-قــوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾(٤).

فهــذه ثلاثة مواضع في كتاب الله تعالى لا رابع لها، وقد جاءت كلها على نسق رباني واحد، وهذا النسق هو ترتيب عمل الرسول كالآتي:

١) تلاوة الآيات.

٢) التزكية.

٣) التعليم.

---

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) البقرة: ١٥١، ١٥٢.

(٣) آل عمران: ١٦٤.

(٤) الجمعة: ٢.

وتكـــرار الآيات الثلاثة بهذا النسق والترتيب المتحد يدل على أن إبراهيم الخليل عليه الـــسلام قد فاته بعلمه البشري المحدود الترتيب الصحيح للمنهج الدعوي في عمل الرسول الذي دعا ببعثته.

وتـــأتي هـــذه الآية التي تشتمل على دعاء إبراهيم عليه السلام مخالفة في ترتيبها النسق القرآني في الآيات الثلاثة الأخرى التي تحدثت في هذا الصدد بذاته.

فالآيـــات بهـــذا الترتيب السابق كأنها تصحح خطأ في ترتيب إبراهيم للمهام التربوية للرســـولﷺ وكأنها تقرر تقريرًا جازمًا لا شبهة فيه ضرورة الالتزام بهذا الترتيب في منهج الدعوة والتربية.

هـــذا التـــرتيب الذي يعتمد البدء بالتزكية أولاً، ويقدم ذلك على تعلم الأحكام من الكتاب والحكمة.

فعملـــية التعلم والدراسة لابد أن يسبقها عملية إعداد وتأهيل هي عملية التزكية التي تعـــتمد في الفتـــرة الأولى بـــالأخص على تلاوة القرآن والقيام به، وإلزام النفس مدارج الفضيلة والرقي والكمال الإنساني في تحقيق العبودية الحقة لله رب العالمين.

شمولية التزكية:

قلـــنا إن التزكية الشرعية المطلوبة هي تلك التزكية التي تعتمد على العلم الشرعي الصحيح من الكتاب والسنة الصحيحة وما كان عليه السلف الصالح (رضوان الله عليهم).

وهـــذه التزكية لها جانبان: نظري وعملي، وكلا الجانبين متلاحمان لا يتصور انفصالها ولا افتراقها بحال، فلابد من الموالاة بينهما.

والدلـــيل علـــى ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتعلمون عشر آيات من القرآن، فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العمل، ويعملوا بما فيها، فتعلموا بذلك العلم والعمل جميعًا[1].

---

(١) ذكـــره ابـــن كثير في "تفسيره" (٤/١)، والذهبي في "سير أعلام النبلاء" (٢٧١/٤) من قول أبي عبدالرحمن السلمي.

فالمفتــرض أن ما يتعلمه المسلم نظريًا من خلال كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ أو كلام أهل العلم الثقات المتبعين هدي النبي ﷺ يسارع إلى تطبيقه وامتثاله أولاً بأول.

الجانب النظري:

فعلى المستوى النظري يتعلم المسلم في هذه المرحلة:

-معرفة الله تعالى بصفاته وأسمائه الحسنى.

-رؤيــة آثــار صفات الله تعالى ودلائل قدرته ومظاهر رحمته وآلائه ونعمه في آيات الكون وصفحاته المرئية في كل شيء.

وصدق القائل:

فـيا عجـبًا كـيف يعصى الإله ... أو كـيـف يجحـده الجاحـد

وفي كـل شـيء لـه آيـة ... تـدل علـى أنـه الـواحد

-معـرفة رسـول الله ﷺ بصفاته وشمائله وأخلاقه ومعجزاته وزهده وصدقه وورعه وحلمه، وجهاده في سبيل نشر دعوته وتحمل الأذى في سبيل نشر هذا الدين العظيم.

ومعرفة أزواجه أمهات المؤمنين وبناته وآل بيته ﷺ.

-معـرفة مـا يجب عليه من توحيد الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وهو ما يـسمى بتوحـيد الربوبية باعتقاد أنه سبحانه هو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير والسيادة والملك وغير ذلك من معاني الربوبية.

-معـرفة مـا يجب عليه من توحيد الله تعالى في عبادته فلا يتجه بشيء من العبادة لغير الله تعالى كالدعاء والتضرع والاستغاثة والنذر والذبح والطواف والحلق وغير ذلك من العبادات فلا يصرف شيئًا منها لنبي ولا ولي ولا لأحد إلا الله تعالى. وهذا ما يعرف بتوحيد العبودية.

-معرفة حقيقة الإسلام وما يقتضيه من الانقياد والاستسلام لجميع ما أمر به الله تعالى أو أمـر به رسوله ﷺ، وأداء الفرائض الظاهرة من صلاة وصيام وزكاة وحج وغير ذلك، واجتناب الكبائر والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

-معرفة حقيقة الإيمان وما يقتضيه من الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

-معرفة مهمات الأحكام لما يجب عليه من العبادات كمعرفة أحكام الطهارة والصلاة والصيام والزكاة والحج والنكاح والطلاق والبيع والشراء والربا والرشوة ونحو ذلك مما يبتلى به من الأحكام والتكاليف في حياته اليومية.

-معرفة ما يستقيم به خلقه، ويصلح به دينه، من أعمال القلوب كالصدقة والإخلاص والإنابة والتوبة والتوكل والاستقامة والخشوع والزهد والورع وتقوى الله تعالى ونحو ذلك من الأمور التي تحيا بها القلوب وينصلح حالها مع الله تعالى.

-معرفة الأخلاق الصالحة القويمة التي تستقيم بها معاملاته مع الناس نحو العدل والوفاء والصدق والأمانة والإحسان ونحوها من الصفات القويمة مع اجتناب أضدادها من الرذائل الذميمة كالغدر والخيانة والكذب والغش ونحو ذلك.

-معرفة الآداب الإسلامية التي هي عنوان السلوك الإسلامي ودليل على حسن السمت في الدين والثبات فيه.

وذلك يشمل آداب الطعام والشراب واللباس والنوم والمشي والحديث والاجتماع.. إلخ ذلك.

نموذج قرآني فريد في تزكية النبي ﷺ لأصحابه:

لقد صوَّر لنا القرآن الكريم كيف زكىّ النبي ﷺ نفسه وأصحابه وربّاهم في مدرسة القرآن على الصلاة وقيام الليل وتلاوة القرآن وسماعه قال تعالى في سورة المزمل: **﴿يأيها الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إلا قَلِيلا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾**[1].

فهذه تزكية الله لنبيه ﷺ وتربيته له حيث أمره بما يزكي به نفسه من صلاة الليل وقيامه وتلاوة القرآن، وأمره أن يقوم في ذلك ما استطاع من الليل نصفه أو أكثر أو أقل.

ثم يصور لنا القرآن الكريم كيف أخذ النبي ﷺ أصحابه بهذا المنهج وكيف ثبت أصحاب النبي ﷺ معه على هذا المنهج سنة كاملة كانت تزكية لهم وتأهيلاً لحمل أمانة

---

(١) المزمل: ١-٤.

الدعوة لهذا الدين العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(١)].

إنها دعوة شاملة للتزكية بكافة صورها من قيام الليل وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات والمجاهدة في سبيل الله تعالى كل ذلك طلبًا لزكاة النفس وصلاحها.

استمرارية التزكية:

إذا كنا قد قررنا وجوب البدء بإصلاح النفس وتزكيتها؛ فإن ذلك لا يعني أن التزكية مجرد مرحلة في بادئ الأمر ثم تنتهي، ولكن المقصود هو إشعال جذوة الحمية الإيمانية، وإذكاء نارها، ثم بعد ذلك لابد من تعهد تلك النار بتغذيتها بالوقود الصالح حتى لا تنطفئ، وحتى لا يتحقق للشخص مَثَل المنافقين الذي ضربه الله لهم حيث قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[(٢)].

الإيمان شجرة تحتاج إلى وقفة لغرسها وتثبيتها، ثم تحتاج بعد ذلك تعهدًا بالرعاية والسقاية حتى تؤتي أكلها وثمارها كل حين بإذن ربها، وكذلك المؤمن لا يستغني عن الاجتهاد في العبادات والطاعات التي تزكي نفسه، ولا يستغني عن إنابة وتوبة وتطهير لنفسه وقلبه من الأدناس والأرجاس.

وقد أفاض العلماء فيما ينبغي للدعاة أن يتحلوا به في دعوتهم من الصفات، فذكروا

---

(١) المزمل: ٢٠.

(٢) البقرة: ١٨.

من ذلك:

الإخـــلاص، والاحتـــساب، والثـــبات، والـــصبر، والحكمة، والعلم، وزكاة النفس والاستقامة، وحفظ الأدب، والمروءة وسلامة الظاهر والباطن[1].

وهـــذه الصفات كلها لا تخرج عما اشتملت عليه مطالع هذه السور الثلاث (العلق- المزمل- المدثر).

وقد سبق بيان ما اشتملت عليه من الصفات.

دعوة وتوصية:

يبقى أن توجه هنا دعوة إلى الأمة كافة، وتوصية إلى الدول والحكومات الإسلامية أن تعمل على الاهتمام بالدعوة ورعاية الدعاة والاهتمام بكفالتهم إذا كنا صادقين في الادعاء بالحـــرص على مصلحة هذا الدين والرغبة في إعلاء كلمته وسوف نفرد هذه النقطة بمزيد بحـــث عـــند الحديث عن اقتراحات التطوير في واقعنا المعاصر في المبحث الأخير من هذا البحث.

---

(١) انظر على سبيل المثال (رسالة إلى الدعاة) لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين من (صـــ٣٣- ٥١).

obeikandl.com

ثانيا: الوسائل الآلية الإعلامية[1]:

لم يشترط القرآن أو النبي ﷺ في تبليغ دعوته آلة بعينها أو وسيلة إعلامية معينة فالوسائل الإعلامية مباحة بشرط خلو تلك الوسائل من المحظورات الشرعية.

فالقرآن يقرر أن النذارة وإقامة الحجة تحصل للمدعويين ببلوغ دعوته دون اعتبار وسيلة إعلامية بعينها فأيما وسيلة حصل بها البلاغ والتبليغ فقد قامت الحجة وتمت النذارة.

ودليل ذلك قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: **﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾**[2].

قال ابن كثير: "أي: وهو نذير لكل من بلغه"[3].

فبينت الآية أن النذارة حاصلة دون اعتبار للوسيلة التي يتم بها الإبلاغ.

وقوله تعالى: **﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾** على تقدير حذف المفعول، أي: **"ومن بلغه"**، وذلك لوضوحه من السياق[4].

فاعتبر القرآن بلوغ الدعوة و لم يعتبر وسيلة التبليغ فلم يقل ومن بلغه أو بلغته رسلي أو دعاتي أو غير ذلك، وإنما أطلق التبليغ ووسيلتها.

وفي ذلك إشارة إلى عدم الحجر في استخدام أي وسيلة إعلامية ما لم تتضمن محظورًا من المحظورات الشرعية.

وفي التطبيقات الدعوية في السنة النبوية ما يبين ذلك، فالنبي ﷺ قد استحدث وسيلة

---

(١) هناك وسائل آلية مساعدة مثل: تقديم المساعدات المالية، وإعداد القوة الاقتصادية، والقوة العسكرية، وسيأتي الحديث عنها في منهج الدعوة.

(٢) الأنعام:١٩

(٣) تفسير ابن كثير- (٢/١٢٧).

(٤) وانظر: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي: البحر المحيط- دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد والشيخ علي محمد وآخران- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤١٣ هـ-١٩٩٣م- (٤/٩٦).

إعلامية جديدة[1] لم يكن للناس عهد بها للإعلام بالصلاة، وهي الأذان، ورفض عند ذلك مـا اقترحه بعض أصحابه من الوسائل التي رغب عنها النبي ﷺ لاشتمالها على محظور من المحظورات مثل مشابهة أهل الكتاب في نسكهم، وذلك فيما اقترح عليه من اتخاذ الضرب بالناقوس وسيلة للإعلام بالصلاة.

أو لاشتمالها على محظور زائد على المشابهة مثل تعظيم معالم الشرك، وذلك فيما اقترح عليه من إشعال النار كما يفعل المجوس الذين يعبدون النار أو يعظموها[2].

---

(١) سـيأتي الحـديث في الفصل الخاص بتطوير المنهج والوسائل الإعلامية عن مشروعية استحداث الوسائل الدعوية وضوابطه.

(٢) كمـا جاء في بدء الآذان عن ابْنَ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلاةَ لَيْسَ يُنَادَى لَهَا، فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ بُوقًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ. فَقَالَ عُمَرُ: أَوَلا تَبْعَثُونَ رَجُلا يُنَادِي بِالصَّلاةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا بِلالُ قُمْ فَنَادِ بِالصَّلاةِ. [أخرجه البخاري في "الآذان"، باب: بدء الآذان (٦٠٤)، ومسلم في "الصلاة"، باب: بدء الآذان (٣٧٧).].

وأخرجه أبو داود وغيره من حديث عَبْدِاللَّهِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ لِجَمْعِ الصَّلاةِ طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلاةِ. قَالَ: أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى. قَالَ: فَقَالَ: تَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ أَشْـهَدُ أَنْ لا إِلَـهَ إِلا اللَّهُ... أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ... حَيَّ عَلَى الـصَّلاةِ حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ... حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ... اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ. قَالَ: ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ قَالَ: وَتَقُولُ إِذَا أَقَمْتَ الصَّلاةَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ... أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ... حَيَّ عَلَى الصَّلاةِ... حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ... قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ... اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَـا رَأَيْتُ فَقَالَ: "إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَقُمْ مَعَ بِلالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ"، فَقُمْتُ مَعَ بِلالٍ فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ وَيُؤَذِّنُ بِهِ. قَالَ: فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ وَيَقُولُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ مَا رَأَى.فَقَالَ =

= رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَلِلَّهِ الْحَمْدُ".[أخرجه أحمد في"مسنده"(٤٣/٣)، وأبو داود في "الصلاة" ، باب : كيف الآذان (٤٩٩)، والترمذي في "الصلاة"، باب: ما جاء في بدء الآذان (١٨٩).].

وفي رواية عند أحمد بلفظ: "لَمَّا أَجْمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَضْرِبَ بِالنَّاقُوسِ يَجْمَعُ لِلصَّلاةِ النَّاسَ -وَهُوَ لَهُ كَارِهٌ لِمُوَافَقَتِهِ النَّصَارَى- طَافَ بِي مِنْ اللَّيْلِ طَائِفٌ وَأَنَا نَائِمٌ، رَجُلٌ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ وَفِي يَدِهِ نَاقُوسٌ يَحْمِلُهُ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلاةِ. قَالَ: أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ...." فذكر الحديث.[أخرجه أحمد في "مسنده" (٤٢/٤).].

وعند ابن ماجه بلفظ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ هَمَّ بِالْبُوقِ وَأَمَرَ بِالنَّاقُوسِ فَنُحِتَ، فَأُرِيَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ زَيْدٍ فِي الْمَنَامِ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلا عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ يَحْمِلُ نَاقُوسًا...." فذكر الحديث.[أخرجه ابن ماجه في"الآذان والسنة فيه"، باب: بدء الآذان (٧٠٦)].

وجاء من حديث معاذ بن جبل كما أخرجه أحمد في "مسنده" (٢٤٦/٥)، وأبو داود في "الصلاة"، باب: كيف الآذان (٥٠٦)، ولفظه " عَنْ مُعَاذٍ أَنَّ الصَّلاةَ أُحِيلَتْ ثَلاثَةَ أَحْوَالٍ، وَأُحِيلَ الصِّيَامُ ثَلاثَةَ أَحْوَالٍ، فَأَمَّا أَحْوَالُ الصَّلاةِ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَهُوَ يُصَلِّي سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ **﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**[البقرة:١٤٤]. قَالَ فَوَجَّهَهُ اللَّهُ إِلَى مَكَّةَ. قَالَ: فَهَذَا حَوْلٌ. قَالَ: وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلاةِ وَيُؤْذِنُ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى نَقَسُوا أَوْ كَادُوا يَنْقُسُونَ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلا مِنْ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ زَيْدٍ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، وَلَوْ قُلْتُ: إِنِّي لَمْ أَكُنْ نَائِمًا لَصَدَقْتُ، إِنِّي بَيْنَا أَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ رَأَيْتُ شَخْصًا عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ... أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ مَثْنَى مَثْنَى حَتَّى فَرَغَ مِنْ الأَذَانِ، ثُمَّ أَمْهَلَ سَاعَةً. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: مِثْلَ الَّذِي قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ يَزِيدُ فِي ذَلِكَ قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ قَدْ قَامَتْ الصَّلاةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلِّمْهَا بِلالا فَلْيُؤَذِّنْ بِهَا، فَكَانَ بِلالٌ أَوَّلَ مَنْ أَذَّنَ بِهَا. قَالَ: وَجَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ قَدْ طَافَ بِي مِثْلُ الَّذِي أَطَافَ بِهِ غَيْرَ أَنَّهُ سَبَقَنِي......" الحديث.

وأخرجه الدارمي في "سننه" (١١٨٧) عن محمد بن إسحاق قَالَ: وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قَدِمَهَا- يَعْنِي الْمَدِينَةَ- إِنَّمَا يُجْتَمَعُ إِلَيْهِ بِالصَّلاةِ لِحِينِ مَوَاقِيتِهَا بِغَيْرِ دَعْوَةٍ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ بُوقًا كَبُوقِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يَدْعُونَ بِهِ لِصَلاتِهِمْ، ثُمَّ كَرِهَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالنَّاقُوسِ فَنُحِتَ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلاةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ رَأَى عَبْدُاللَّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ ....." فذكر الحديث. =

وتنقـــسم وسائل الدعوة في القرآن الكريم والسنة النبوية من حيث آلية الدعوة أو من حيث الوسيلة الإعلامية إلى قسمين:

الأول: المخاطبة.

الثاني: المكاتبة.

١- المخاطبة:

وهـــي تعتمد على الخطاب المباشر للمدعو، وذلك كما في السياقات الكثيرة المتعددة الـــتي بين الله تعالى لنا فيها كيف خاطب كل رسول قومه ودعاهم إلى الله تعالى بالدعوة المباشرة عن طريق المخاطبة:

نحـــو: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَـيْرُهُ**

=وفي المـــوطأ عَـــنْ مَالِـــك، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيد أَنَّهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ خَشَبَتَيْنِ يُضْرَبُ بِهِمَا لِيَجْتَمِعَ النَّاسُ لِلصَّلاةِ، فَأُرِيَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ ثُمَّ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ خَشَبَتَيْنِ فِي النَّوْمِ فَقَالَ: إِنَّ هَاتَيْنِ لَنَحْوٌ مِمَّا يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقِيلَ: أَلا تُؤَذِّنُونَ لِلصَّلاةِ، فَأَتَـــى رَسُـــولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالأَذَانِ. [أخرجه مالك في "الموطأ" (١٤٩).].

وقال ابن تيمية: "إنما الغرض هنا أن النبي ﷺ لما كره بوق اليهود المنفوخ بالفم، وناقوس النصارى المـــضروب بالـــيد علل هذا بأنه من أمر اليهود، وعلل هذا بأنه من أمر النصارى؛ لأن ذكر الوصف عقيب الحكم يدل على أنه علة له، وهذا يقتضي نهيه عن كل ما هو من أمر اليهود والنصارى، هذا مع أن قرن اليهود يقال: إن أصله مأخوذ عن موسى عليه السلام، وأنه كان يضرب بالبوق في عهده، وأما ناقـــوس النصارى فمبتدع؛ إذ عامة شرائع النصارى أحدثها أحبارهم ورهبانهم، وهو يقتضي كراهية هـــذا الـــنوع من الأصوات مطلقا في غير الصلاة أيضا؛ لأنه من أمر اليهود والنصارى؛ فإن النصارى يـــضربون بالنواقيس في أوقات متعددة غير أوقات عباداتهم، وإنما شعار الدين الحنيف الأذان المتضمن للإعـــلان بذكر الله سبحانه، الذي به تفتح أبواب السماء وتهرب الشياطين وتنزل الرحمة" [أحمد بن عبدالحليم بن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم- تحقيق: د/عبدالحميد هنداوي- المكتبة العصرية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـــ-٢٠٠٢م- (١٦٢-١٦٣).].

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

ونحـو: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

ونحـو: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[3].

ونحـو: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[4].

---

(١) الأعراف: ٥٩-٦٣.

(٢) الأعراف: ٦٥-٦٧.

(٣) الأعراف: ٧٣-٧٩.

(٤) الأعراف: ٨٠-٨٢.

والآيات في هذا النوع كثيرة جدًّا يطول حصرها، وهذه النصوص وغيرها يؤصل لهذه الوسيلة الدعوية بكل صورها القديمة والحديثة مثل الخطبة والمحاضرة والحوار والمناظرة والندوات والمؤتمرات ووسائل الاتصال الحديثة كالإذاعة والتلفاز والهاتف وأشرطة الكاسيت والفيديو والأقراص المضغوطة الـCD والأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت وغير ذلك من الوسائل الدعوية المعتمدة على الخطاب الموجه إلى المدعو أيًّا كان نوع هذا الخطاب.

وقد يقوم الداعي بمخاطبة قومه بنفسه أو يرسل إليهم رسلاً يخاطبونهم بدعوته ويبلغونهم إياها بكافة الوسائل الخطابية كذلك فيمكن أن تعد بذلك وسيلة دعوية أخرى من حيث إن الداعي لا يمارس الدعوة فيها بنفسه، بل يعتمد على إرسال رسول أو رسل نائبين عنه في تبليغ تلك الدعوة.

ونستطيع أن نلمح ذلك واضحًا في قوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾[1].

قال ابن كثير في هذه الآية: "أي: وهو نذير لكل من بلغه"[2].

"فإن فيه دلالة واضحة على أن النذارة بالقرآن مستمرة وحاصلة بكل من يقوم بمهمة البلاغ والتبليغ نائبًا عن الرسول ﷺ، وليسوا إلا الدعاة العاملين حملة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومبلغيها في الآفاق ففي دعوتهم وإبلاغهم الحجة والنذارة لمن بلغته تلك الدعوة وتلك النذارة".

وذلك كما في قصة سورة (يس) في قوله تعالى: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)**

---

(١) الأنعام: ١٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير- (١٢٧/٢).

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[1].

فهؤلاء الرسل قد أرسلهم عيسى عليه السلام إلى قرية أنطاكية كما ذكر المفسرون عن قتادة[2].

فعيسى عليه السلام لم يذهب إلى أهل هذه القرية بنفسه ولكن جعل وسيلته لدعوة أهل هذه القرية إرسال هؤلاء الرسل إليهم، وقد أرسل إليهم في بادئ الأمر اثنين فكذبوهما، فعززهم بثالث يقوي شأنهم ويؤازرهم في دعوة أهل هذه القرية وإقناعهم.

وهذه الوسيلة يعتمد فيها الرسل كما هو واضح من سياق الآيات على مشافهة المدعوين، ومخاطبتهم خطابًا مباشرًا فكأنها ترجع إلى الوسيلة الأولى.

٢-الوسيلة الثانية من حيث آلية الدعوة، وهي طريقة مستقلة عن الأولى هي: المكاتبة:

وقد استخدمت في عهد النبي ﷺ في صورة إرسال الكتب أو الرسائل الدعوية:

كما استخدمت من قديم كذلك لدى الأنبياء السابقين -عليهم جميعًا صلوات الله تعالى وتسليمه.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن من قصة سليمان -عليه السلام- مع الهدهد وإرساله إليهم كتاب إلى ملكة سبأ يدعوها فيه هي وقومها إلى الإسلام وكان نص رسالته كما ذكرها القرآن:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[3].

ومن ذلك أيضًا ما أرشد إليه القرآن النبي ﷺ في دعوته أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4].

فقد وظفها النبي ﷺ في دعوته للملوك والرؤساء من أهل الكتاب فخاطبهم بها كما

---

(١) يس: ١٣-١٩.

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير في هذه الآيات.

(٣) النمل: ٣٠-٣١.

(٤) آل عمران: ٦٤.

obeikandi.com

صح بذلك الحديث عن النبي ﷺ.

فقد روى البخاري: كما في حديث هرقل وفيه "ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** ...الحديث[(١)].

وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بِكِتَابِهِ رَجُلًا وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ الْبَحْرَيْنِ فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ[(٢)].

ثالثًا: الوسائل التخطيطية:

أ) تنوع وسائل الدعوة من حيث السرية والجهرية:

تتنوع وسائل الدعوة في القرآن الكريم من حيث اتخاذ السرية أو الجهرية وسيلة للوصول إلى قلب المدعو، وإيصال دعوة الخير إليه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى استخدام نبي الله نوح –عليه السلام– للوسيلتين كلتيهما في دعوته قومه حيث قال على لسان نوح –عليه السلام-: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾**[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في "بدء الوحي" (٧)، ومسلم في "الجهاد والسير"/باب: كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (١٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في "العلم"/باب: ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم، (٦٤).

(٣) نوح: ٥-٩.

obeikandi.com

فنوح –عليه السلام- يقرر أنه قد دعا قومه بالليل والنهار، سرًّا وعلانية، وذكر الليل والنهار لأنه قد دعاهم سرًّا وجهرًا، فكان الليل أنسب الأوقات لدعوة السر، والنهار أنسب لدعوة الجهر، وقد دعاهم عليه السلام سرًّا وجهرًا على ما تقتضيه الحكمة من ذلك كله فجعل دعوة السرّ حيث يكون ذلك أصلح وأنفع، وجعل دعوة الجهر حيث يكون ذلك أنجح وأنجع.

ولكل واحد من النوعين أحوال يصلح لها دون الآخر، وقد بين القرآن الكريم وبينت السنة النبوية تلك الأحوال.

١- الدعوة السرية:

اعتمدت دعوة النبي ﷺ على الدعوة السرية في مهدها حيث كان ذلك أجدى وآمن، فقد ظل النبي ﷺ يدعو إلى الله تعالى سرًّا في بادئ الأمر متمثلاً قول الله تعالى: **﴿يأيها الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾**(١).

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال: "جاورت بحراء شهرًا فلما قضيت جواري هبطت فلما استبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي فرأيت شيئًا، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثتُ منه رعبا حتى هويت إلى الأرض فأتيت خديجة فقلت: زملوني، زملوني، دثروني، وصبوا علي ماء باردًا"، قال: "فدثروني وصبوا علي ماء باردًا، فنزلت: **﴿يأيها الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾**.

وفي ذلك يقول صاحب الرحيق المختوم:

"ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب، وكان بها سدنة الكعبة والقوام على

(١) المدثر: ١-٥.

الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسرًا وشدة عما لو كان بعيدًا عنها، فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تون الدعوة في بدء أمرها سرية، لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم.

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به وآل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسم فيه خيرًا ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الله الحق والخير، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء — الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره- جَمْعٌ عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم زوجة النبيﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي، وابن عمه علي بن أبي طالب - وكان صبيًّا يعيش في كفالة الرسول ﷺ وصديقه الحميم أبو بكر الصديق. أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة.

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلاً مألفًا محببًا سهلاً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموي، والزبير بن العوام الأسدي، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي، فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي، ثم تلاهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبدالأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبدالله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ابن عبدمناف، وسعيد بن زيد العدوي، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت،وعبدالله بن مسعود الهذلي، وخلق سواهم، وأولئك هم

السابقون الأولون، وهم من جميع بطون قريش، وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا. وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر.

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به.

أسلم هؤلاء سرًّا، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيًّا؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل المدثر، وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصية، ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا، تصف الجنة والنار كأنهما رأي عين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك.

وقد ذكر ابن هشام: أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأي أبو طالب النبي ﷺ وعليًّا يصليان مرة، فكلمهما في ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات.

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، والدعوة لم تزل مقصورة على الأفراد، ولم يجهر بها النبي ﷺ في المجامع والنوادي، إلا أنها عرفت لدى قريش، وفشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به الناس، وقد تنكر له بعضهم أحيانًا، واعتدوا على بعض المؤمنين، إلا أنهم لم يهتموا به كثيرًا حيث لم يتعرض رسول الله لدينهم، ولم يتكلم في آلهتهم(١).

ونستطيع أن نذكر بعض أسباب سرية الدعوة في هذه المرحلة من خلال معرفتنا بطبيعة تلك المرحلة وملابساتها، ومن ثم نوجز أهم تلك الأسباب في:

١-الحرص على الدعوة أن توأد في مهدها إذا ما جوبهت قريش بها، وإذا ما استشعرت خطرها.

٢-إفساح المجال لبناء الرعيل الأول وتأسيسه في جو آمن، وإن كان الأذى يصل إلى

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، ص(٩٣-٩٥).

هـؤلاء الأوائـل ويزداد يومًا بعد يوم كلما ازداد عدد السابقين إلى هذه الدعوة، وكلما أحست قريش بخطرها واتساعها.

٣-الدعـوة الـسرية الهادئـة المفصَّلة أنسب شيء لتلك المرحلة الأولى مرحلة البناء والتأسيس.

٤-الجهر بالدعوة في بادئ الأمر إن لم يؤد إلى القضاء على الدعوة في مهدها فسيؤدي حتمًا إلى التشويش عليها وعلى المبتدئين فيها في بداية عهدهم بها.

لهـذه الأسباب -وغيرها مما يعلمه الله- تكون الدعوة السرية في بادئ الأمر مفيدة في مثل تلك الظروف التي واجهت دعوة النبي ﷺ في قومه.

٢-الدعوة الجهرية:

حفل القرآن الكريم بالعديد من مواقف الدعوة الجهرية للأنبياء مع أقوامهم، وقد سبق أن عرضنا عددًا من أمثلتها عند حديثنا عن المشافهة بالدعوة.

ونحـب أن نعرض هنا لبعض تطبيقات النبي ﷺ لجهرية الدعوة في مرحلة الجهر بها من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أول أمر بإظهار الدعوة والجهر بها:

"لمـا تكـونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتتحمل عبء تبليغ الرسـالة وتمكيـنها من مقامها نزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة، ومجاهة الباطل بالحسنى.

وأول مـا نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[(١)]، وقد ورد في سـياق ذكـرت فـيه أولاً قصة موسى عليه السلام، من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسـرائيل، وقـصة نجاهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى -عليه السلام، خلال دعوة فرعـون وقومـه إلى الله.

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

وكـأن هذا التفصيل جيء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله؛ ليكون أمامه وأمـام أصـحابه مـثال لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية"[1].

أمثلة من الدعوة الجهرية في حياة النبي ﷺ:

البدء بدعوة الأقربين:

"دعـا رسول الله ﷺ عشيرته بني هاشم بعد نزول هذه الآية، فجاءوا ومعهم نفر من بني المطلـب بـن عبدمناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً. فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم، ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعـرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشر مما جئت به، فسكت رسول الله ﷺ، و لم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم دعـاهم ثانية وقال: "الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له". ثم قال: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هـو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا"

فقـال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقًا لحديثك. وهـؤلاء بـنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمـرت بـه. فوالله، لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبدالمطلب.

فقـال أبـو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا[2].

---

(١) السابق- ص(٩٧).

(٢) الكامل لابن الأثير- (١/٥٨٤، ٥٨٥).

obeikandi.com

على جبل الصفا:

وبعد تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه، صعد النبي ﷺ ذات يوم على الصفا، فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف: "يا صباحاه"[1].

وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم.

ثم جعل ينادي بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: "يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبدالمطلب".

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش.

فلما اجتمعوا قال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي بسَفْح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدقي؟".

قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العَدُو فانطلق يَرْبَأ أهله" (أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو) "فخشي أن يسبقوه فجعل ينادي: يا صباحاه".

ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فخص وعم فقال: "يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.

يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني قصي، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

يا معشر بني عبدمناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"- (٤٨٠١)، ومسلم في "الإيمان"- (٢٠٨).

يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني عبدالمطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا.

يا عباس بن عبدالمطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا صفية بنت عبدالمطلب عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا فاطمة بنت محمد رسول الله، سليني ما شئت من مالي، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرًا ولا نفعًا، ولا أغني عنك من الله شيئًا.

غير أن لكم رحمًا سأبُلّها بِبلالها" أي سأصلها حسب حقها.

ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أي ردة فعل، سوى أن أبا لهب واجه النبي ﷺ بالسوء، وقال: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[1][2].

كانت هذه الصيحة من النبي ﷺ بمثابة الإعلان عن هذه الدعوة، فبدأ ضعفاء الناس يتسللون إليها، ومنذ ذلك اليوم أعلنت العداوة السافرة بين حزب الموحدين وحزب المشركين، فعملت قريش على مجابهة هذه الدعوة بأساليب شتى، منها:

١-السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب للنبي ﷺ والمؤمنين.

٢-إثارة الشبهات والدعايات الكاذبة.

٣-الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن.

٤-اضطهاد المؤمنين وتعذيبهم.

٥-الاعتداءات على النبي ﷺ.

---

(١) المسد: ١.

(٢) الرحيق المختوم- ص(٩٧-٩٩).

٦-مساومة النبي ﷺ على ترك دعوته.

٧-مقاطعتهم للمسلمين ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب[(١)].

هذه النتائج كانت هي أهم النتائج التي أسفرت عنها الدعوة الجهرية، ولقد أثبتت هذه النتائج الحكمة البالغة في سرية الدعوة ثلاث سنوات قبل الجهر بها في هذا الوقت ولقد كان قرار الجهر بالدعوة حكيمًا، كما كان قرار السرية حكيمًا كذلك، فما كان لهذه الدعوة أن تُعرَف وتنتشر وتكسب الأنصار والأعوان والمؤيدين إلا بالجهر بها في يوم من الأيام.

فحينما بلغ أنصار هذه الدعوة حدًّا يستطيعون الدفع عن دعوتهم والذبّ عنها إذا ما تعرضوا لمواجهة شاملة، وحينما بلغوا حدًّا يصعب معهم استئصال شأفتهم لكثرتهم -نوعًا ما- باعتبار تعدد أحيائهم وبطونهم وأوليائهم، وحينما بلغ الإيمان في قلوب هؤلاء الرعيل الأول نصابه الذي يحتم على أصحابه أن يخرجوا زكاته من الصبر والثبات وتحمل المشاق في سبيل نصرة هذا الدين والحفاظ على هذا الإيمان، حينما حدث ذلك كله كان الجهر بالدعوة قرارًا حكيمًا مناسبًا لظروف الدعوة في ذلك الوقت.

وهكذا تكون السرية والجهرية وسيلتين أمام الدعوة الحكيمة يتخير منهما الداعي ما هو أصلح لدعوته، وقد يمزج بينهما في بعض الأحيان بحسب مصلحة الدعوة، فالانتقال إلى مرحلة الدعوة الجهرية لا يحتم سلوك سبيل الجهر في جميع الظروف والمناسبات والأحوال فقد تنتقل الدعوة إلى المرحلة الجهرية، ولكن يرى الداعي أن من الحكمة أن يحتفظ بسرية الدعوة في بعض أمورها أو أحوالها.

والشاهد على ذلك من سنة النبي ﷺ هو ما كان في المرحلة الجهرية من اتخاذ النبيﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم يجتمع فيها وأصحابه في هذه المرحلة سرًّا بعيدًا عن أعين قريش.

فمع الجهر بالدعوة تأزمت الأمور واشتد الحال بأصحاب النبي ﷺ، وكان لابد من

---

(١) انظر تفصيل الكلام في هذه النقاط في الرحيق المختوم- ص(١٠٠-١٤٠).

اتباع سياسة المدّ والجزر وكانت الحكمة تقتضي مزج الجهرية بالدعوة في هذه المرحلة بشيء من السرية في بعض أمورها.

"وكان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار رسول الله ﷺ موقفًا حازمًا ينقذ به المسلمين عما دهمهم من البلاء، ويخفف وطأته بقدر المستطاع، وقد اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين حكيمتين كان لهما أثرهما في تسيير الدعوة وتحقيق الهدف، وهما:

١-اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزًا للدعوة ومقرًا للتربية.

٢-أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة.

دار الأرقم:

كانت هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرًا، فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة؛ وليؤدي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله وهم في أمن وسلام، وليدخل من يدخل في الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة.

ومما لم يكن يشك فيه أن رسول الله ﷺ لو اجتمع بالمسلمين علنا لحاول المشركون بكل ما عندهم من القسوة والغلظة أن يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة، وربما أفضى ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل قد وقع ذلك فعلاً؛ فقد ذكر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فيها سرًا، فرآهم نفر من كفار قريش، فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه، وكان أول دم هريق في الإسلام[(١)].

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة السرية والاختفاء، فكان عامة الصحابة يُخْفُون إسلامهم وعبادتهم

(١) أبو محمد عبدالملك بن هشام: سيرة النبي ﷺ- النور الإسلامية- عين شمس- (٢٤٧/١).

واجـــتماعهم، أمـــا رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين، لا يـــصرفه عـــن ذلـــك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرًّا؛ نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام[١].

كان الاجتماع في دار الأرقم إذًا نوعًا من السرية التي تقتضيها الحكمة في هذه المرحلة الجهرية، كما كانت الهجرة إلى الحبشة كذلك نوعًا من الاختفاء والسرية بالدعوة حفاظًا على مكاسب الدعوة في هذه المرحلة كذلك.

٢-الهجرة إلى الحبشة:

لمـــا أعلن الرسول الدعوة على جبل الصفا، بدأت قريش تتربص بالرسول وصحبـــه كمـــا هـــي حالة الدعوات السابقة من الابتلاء والاختبار، وكانت بداية الاعتداءات في أواســـط أو أواخـــر السنة الرابعة من النبوة[٢]، وكانت تزداد شيئًا فشيئًا، حتى بلغ الأذى بالمـــسلمين مـــداه؛ لذا وجد الرسول ﷺ حفاظًا على ثمرة الدعوة -وهم المؤمنون به- أن يهاجـــر المـــسلمون إلى أرض غـــير تلك الأرض الظالم أهلها، فلم يجد أفضل من أرض الحبـــشـــة، تلـــك الأرض التي بها ملك لا يظلم عنده أحد[٣]، وقد تم هذا الأمر في سرية تامـــــة حتى لا تتنبه قريش فتجهض العمل وهو لا يزال في مهده، وقد أدركت قريش ما بيـــته المـــسلمون ولكـــنه قد فات الوقت واستطاع المسلمون أن يفروا بدينهم إلى أرض الحبشة[٤].

ب- الدعوة من حيث الفردية والتعددية:

وهذا التقسيم لا علاقة له بالتقسيم السابق لأن دعوة الفرد أو الجماعة قد يكون سرًّا أو جهرًا فليس هناك ارتباط بين الفردية والسرية أو الجماعة والجهرية.

---

(١) الرحيق المختوم- (ص١١٤-١١٥).

(٢) الرحيق المختوم- (١١٥).

(٣) أخرجه أحمد في "المسند" (٢٠٣/١)، وصحح إسناده العلامة أحمد شاكر في تعليقه على المسند- (١٧٤٠).

(٤) انظر الرحيق المختوم- (١١٥-١١٦).

وتنقسم الدعوة من حيث الفردية والتعددية إلى:

١- دعوة الفرد. ٢- دعوة الجماعة.

١- دعوة الفرد:

وفيها يتم انفراد الداعي بالمدعو سواء لأن ذلك أنسب من ناحية سرية الدعوة، أو لكونه أنسب لمراعاة حال المدعو لكونه بحاجة إلى شرح وبسط وإزالة شبه خاصة به فلا ارتباط هنا بين الفردية والسرية، فقد يدعي الفرد وحده في مرحلة الدعوة الجهرية لظروف تخصه أو أمور تناسبه كمراعاة حالته الاجتماعية أو السياسية أو غير ذلك من الأمور التي تدخل مراعاتها في حكمة الدعوة.

وغالبًا ما تكون الدعوة الفردية هي الأنسب في البدايات الأولى للدعوة، أو في مرحلة اضطهاد الدعوة وترصدها.

وهذا هو ما سلكه النبي ﷺ في دعوته حيث بدأ بدعوة الأفراد فدعا في بادئ الأمر زوجته خديجة فكانت أول من آمن به من النساء، ثم دعا عليًا -رضي الله تعالى عنه- وكان صبيًا يعيش في كفالته ﷺ، ثم دعا مولاه زيد بن حارثة بن شراحيل، ثم دعا صديقه الحميم أبا بكر الصديق.

فكان هؤلاء أول من دعاهم النبي ﷺ إلى هذا الدين فآمنوا به واتبعوه[١].

٢-دعوة الجماعة:

ونقصد بها دعوة الاثنين فما فوقهما، وهذا يرجع إلى تقدير الداعي إلى الله تعالى بحسب ما هو أصلح للدعوة والمدعوين، ولا يرتبط ذلك بمرحلة السرية أو الجهرية، فهي ترتبط بما يؤدي إليه النظر السديد القائم على دراسة الظروف والأحوال المحيطة بالدعوة.

وسيرة النبي ﷺ حافلة بهذا النوع من الدعوة، فقد كان ﷺ يتتبع الناس في الأسواق والمنتديات والمحافل والمواسم كموسم الحج والتجارة وغيرها[٢].

---

(١) انظر: السابق- ص(٩٣).

(٢) وانظر على سبيل المثال مبحث: عرض الإسلام على القبائل والأفراد في الرحيق المختوم (١٥٣) وما بعدها، كما تجده مفصلاً كذلك في حياة الصحابة للكاندهلوي في بدايات الجزء الأول من الكتاب.

obeikandi.com

رابعًا: وسائل الدعوة من حيث القالب أو الشكل:

تنقسم الدعوة من حيث طبيعة القالب أو الشكل الدعوي إلى:

١-الموعظة.

٢-الخطبة.

٣-القصة.

٤-التمثيل (ضرب الأمثال).

٥-المجادلة بالحسنى.

٦-المحاجة والمناظرة.

٧-الشعر.

١-الموعظة:

كلمة مؤثرة رقيقة تأخذ بمجامع القلوب فتحركها وتوقظها من غفلتها وسباتها لتدرك الغاية التي خلقت لأجلها، فتزعج النفس وتحركها نحو سبيل تحقيق تلك الغاية.

والموعظة كلمات قصيرة هادئة تتسلل إلى النفس برفق وحكمة بحيث تعرف طريقها إلى قلب السامع، فتدخل لكل إنسان من المدخل اللائق به والمحبب إلى نفسه ومن ثم فهي نوعان:

١- عامة. ٢- خاصة.

فالعامة كسائر المواعظ التي في كتاب الله تعالى، وكسائر المواعظ العامة في حديث النبي ﷺ لا يراد منها تذكير شخص بعينه، بل يراد بها تذكر المؤمنين كافة، وقد تكون أكثر اتساعًا بحيث تشمل تذكير الناس جميعًا.

فمن أمثلة المواعظ العامة لتذكير المؤمنين كافة في كتاب الله تعالى: قوله تعالى: ﴿**يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ**

obeikandl.com

الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ(١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[1].

فهذه الموعظة أمرت المؤمنين بتقوى الله تعالى وذكرتهم بما يجب عليهم من هذا الأصل العظيم، وهو أصل الاجتماع والائتلاف، وحذرتهم عاقبة التفرق والاختلاف، ووعظتهم في ذلك أبلغ موعظة وأحسنها.

وقوله تعالى: ﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

فالآيات هنا تعظ المؤمنين في غفلتهم وتلهيهم عن حقيقة الموت والرجوع إلى الله تعالى وتذكرهم بالأخذ بكتاب الله تعالى والخشوع لأوامره لأن فيه فلاحهم ونجاحهم.

ومن أمثلة الموعظة العامة التي يراد بها تذكير الناس كافة في كتاب الله تعالى، قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يأيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ

---

(١) آل عمران: ١٠٢-١٠٩.

(٢) الحشر: ١٨-٢١.

obeikandl.com

كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

فهذه موعظة بليغة جامعة دعت الناس جميعًا إلى عبادة الواحد الأحد، وذكرت من أدلة استحقاقه سبحانه للتوحيد والعبودية، وذكرت الناس بهذا الكتاب الخالد المعجز وتحدهم أن يأتوا بسورة من مثله، ثم جمعت بين الترهيب والترغيب في بيان عجيب يأخذ بمجامع القلوب، ويستولي عليها، فلا تجد مناصًا من الإقرار بالعبودية والتسليم لمالك الملك والملكوت.

وكذلك من هذا النوع الذي توجه فيه العظة للناس جميعًا قوله تعالى في سورة فاطر: **﴿يأيها النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يأيها النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾**[2].

وأسلوب القرآن في هذه الموعظة قريب من أسلوبه في الموعظة السابقة حيث رتب الدعوة إلى العبودية على دلائل الربوبية، فبدأ بالتذكير بنعم الله تعالى على العبيد وتقريرهم بها، ثم ثنى بتخويفهم من الاغترار بالحياة الدنيا وبالأماني الكاذبة التي يمني بها الشيطان

---

(١) البقرة: ٢١-٢٥.

(٢) فاطر: ٣-٨.

أتباعه ثم بين لهم سوء العاقبة في ذلك، وحسن عاقبة المؤمنين على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب.

ونلاحظ أن القرآن قد بدأ في الموعظتين بالترهيب قبل الترغيب نظرًا لأن الخطاب هنا مع عموم الناس الذين يغلب عليهم الإعراض والغفلة مما ينبغي أن يقدم الترهيب في حقهم لإزالة تلك الغفلة، وذلك بخلاف الخطاب مع المؤمنين المنيبين إلى ربهم الذين يحفزهم الترغيب ويأخذ بنواصيهم إلى الخير.

الموعظة الخاصة: من أمثلة الموعظة الخاصة في القرآن الكريم موعظة لقمان لابنه؛ حيث قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣) **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** (١٤) **وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** (١٥) **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** (١٦) **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** (١٧) **وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** (١٨) **وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾[١].

أمثلة الموعظة في دعوة النبي ﷺ:

الموعظة في دعوة النبي ﷺ تختلف باختلاف المخاطبين من حيث العموم والخصوص، ومن حيث الجنس وغير ذلك.

فمن أمثلة الموعظة الموجهة لعموم المسلمين موعظته ﷺ لعامة المسلمين في حجة الوداع.

---

(١) لقمان: ١٣-١٩.

obeikandl.com

فعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي، أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحَمِدَ الله وأثْنَى عليه وذكر ووعظ، فذكر في الحديث قِصَّة، فقال: "ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هن عوانٍ عندكم ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فأما حقكم على نسائكم فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكُم مَنْ تَكْرَهُونَ، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تُحسِنُوا إليهن في كِسْوَتِهنَّ وطَعَامِهنَّ"(١).

فالنبي ﷺ لم يفوت فرصة اجتماع هذا القدر الكبير من المسلمين في موسم الحج دون أن يعظهم في مهمات أمورهم، وما فيه صلاح البيوت والأسر الذي به صلاح المجتمع، ولما كان ذلك كله متوقفًا على إصلاح شأن النساء والاهتمام بأمورهن فقد اعتنى النبي ﷺ في موعظته بأمر النساء والوصية بهن خيرًا.

ومن أمثلة هذه المواعظ العامة للمسلمين جميعًا كذلك ما رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنَا رسول الله ﷺ يومًا بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب". فقال رجل: إن هذه موعظة مودعٍ فماذا تعهدُ إلينا يا رسول الله؟. قال: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبد حبشيٌّ؛ فإنه من يعش منكم ير اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم بِسُنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ"(٢).

فهي تتعلق بأمر يهم عموم المسلمين وهو أمر الاعتصام ولزوم الجماعة والسمع والطاعة واجتناب البدع ومحدثات الأمور، وهي أمور يتوقف عليها صلاح الدين والدنيا.

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٦٣)، وابن ماجه- (١٨٥١)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح".

(٢) أخرجه أحمد في "مسنده" (٩٢٦/٤)، وابن ماجه- (٤٣)، والحاكم في "المستدرك"- (٩٦/١)، صححه الشيخ الألباني في "الصحيحة"- (٩٣٧).

opeikandi.com

ومن أمثلة الموعظة الخاصة التي تخص جنسًا معينًا من المسلمين كجنس النساء مثـلاً، مـا رواه جابر بن عبدالله –رضي الله عنهما– قال: شهدت مع رسول الله ﷺ الصـلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئًا على بلال، فأمـر بـتقوى الله، وحـث علـى طاعته، ووعظ الناس، وذكرهم، ثم مضى، حتى أتى النساء فـوعظهن وذكرهن، فقال: "تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم"، فقامت امرأة من سطة النـساء سفعاء الخدين، فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: "لأنكن تكثرن الشكاة، وتكفرن العـشير"، قـال: فجعلـن يتـصدقن مـن حُلِـيهنَّ يُلْقِينَ في ثَوْبِ بلالٍ من أَقْرِطَتِهِنَّ وخَوَاتِمِهِنَّ"[1].

فقـد ذكـر راوي الحـديث أن الـنبي ﷺ قد وعظ الناس عامة فذكرهم وأوصاهم بـتقـوى الله تعـالى، ثم توجه إلى النساء خاصة فخصهم بموعظة خاصة دون الرجال لما لهـن من أمور تخصهن تحتاج إلى مزيد تأكيد وتحذير من التهاون والتفريط فيها ككثرة الشكاية، وكفر العشير فلزم التأكيد على ذلك، والتحذير من الوقوع فيه، والتخويف منه بعذاب جهنم.

٢– الخطبة:

الخطبة من الوسائل الدعوية المؤثرة التي حفلت بها سنة النبي ﷺ حيث إن لها مناسبات تتكـرر فيها بصفة دورية كخطبة الجمعة التي تتكرر كل أسبوع أو خطبتي العيدين ويوم عرفة، فضلاً عن المناسبات الخاصة التي تستدعي الخطبة في المحافل والمواسم والمجامع الكبار حيث تتعين هذه الوسيلة في الغالب حيث يكثر عدد الذين يرجى سماعهم للداعي والإقبال على خطبته.

وللخطـبة مواصـفات وسمـات من حيث الإلقاء والأسـلوب والأركـان والمادة والموضـوع.

---

(١) أخـرجه الـبخاري في "الجمعة"، باب: موعظة الإمام النساء يوم الجمعة– (٩٧٨)، ومسلم في "صلاة العيدين" (٨٨٥)، واللفظ له.

فمــن حيث الإلقاء لابد أن يرفع الخطيب صوته ويشتد وتبدو الحماسة والانفعال عليه حتى يجذب الحاضرين ويؤثر في جمعهم وقد كانت السنة النبوية خير تطبيق لذلك، فعن جابر بــن عــبدالله قال: "كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه مُنذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين ويقرن بــين إصــبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة، ثم يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالاً فلأهله ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإليَّ وعليَّ"[1].

ومــن حــيث الأســلوب ينبغي أن يغلب الأسلوب الإنشائي على الأسلوب الخبري التقريــري، والأسلوب الوجداني القلبي على الأسلوب العقلي التأملي؛ لأنه يلقي كلامًا لا يراجع فيه، ولا يوقفه القارئ لاستفهامه في شيء منه.

ومــن أمــثلة ذلك ما نراه في خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع، حيث كــثر فيهــا الأســاليب الاســتفهامية الإنشائية التي جاءت لتقرير الناس بعظم حرمة الدماء والأموال بأحسن بيان.

فعــن أبي بكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: "ألا تدرون أي يوم هذا؟". قالــوا: الله ورسوله أعلم، قال: حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: "أليس بيوم النَّحْرِ؟" قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "أي بلد هذا؟ أليست بالبلدة الحرام؟"، قلنا: بلى يا رسول الله، قــال: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟"، قلنا: نعم، قال: "اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ يبلغه من هو أوعى له"[2] فكان كذلك).

أمــا مــن حيث الأركان فقد اعتنى الفقهاء ببيان أركان الخطبة لاسيما خطبة الجمعة

---

(١) أخرجه مسلم في "الجمعة"، باب: تخفيف الصلاة والخطبة- (٨٦٧).

(٢) أخــرجه البخاري في "الحج"، باب: الخطبة أيام منى- (١٧٤١)، ومسلم في "القسامة والمحاربة"، باب: تغليظ تحريم الدماء- (١٦٧٩).

وضرورة افتتاحها بالتحميد والتشهيد واشتمالها على القرآن والحديث والدعاء ونحو ذلك مما هو مفصَّل في كتب الفقه[1].

وأما من حيث المادة والموضوع، فتخصص الخطبة للتنبيه على الأمور المهمة والتي يحتاج إليها عموم المسلمين، مع تذكيرهم بتقوى الله تعالى وطاعته والإنابة إليه، ونحو ذلك مما فيه صلاح قلوبهم ونفوسهم وتزكيتها.

فليست الخطبة محلاً لتفصيل المسائل والأحكام الفقهية التي تحتاج إلى دقة الفهم ويلزم فيها السؤال والاستفهام والمراجعة وغير ذلك.

فمن أمثلة ذلك أيضًا غير ما ذكر ما رواه زيد بن أرقم ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا، بماء يدعى خُمًّا، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى، ووعظ وذكر، ثم قال: "أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر؛ يوشك أن يأتي رسول الله ربي، فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به" فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: "وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي"[2].

٣- القصة:

حفل القرآن الكريم والسنة النبوية بالعديد من القصص الذي اتخذه القرآن واتخذته السنة وسيلة من الوسائل المؤثرة في الدعوة إلى الله تعالى.

وتعد القصة في القرآن والسنة من أنجح الوسائل الدعوية لأسباب عديدة من أهمها:

أ- عنصر الإثارة والتشويق:

كثيرًا ما يستخدم القرآن الكريم بعض الأساليب اللغوية المحدثة للإثارة والتشويق مثل الأسلوب الإنشائي في قوله تعالى:

---

(١) انظر على سبيل المثال الشيخ سابق: فقه السنة- الفتح للإعلام العربي- القاهرة- (١٤١٧هـ- ١٩٩٧م)- (١/٢٣٤-٢٣٧).

(٢) أخرجه مسلم في "فضائل الصحابة"، باب: من فضائل علي بن أبي طالب- (٢٤٠٨).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾(2).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(3).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾(4).

ب- واقعية القصة مع الحبك وحسن القص والسرد:

وهذا واضح في عموم القصص القرآني والقصص النبوي.

ولا جرم فقد سمّى الله تعالى قصص القرآن الكريم بأحسن القصص فقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(5).

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) البقرة: ٢٤٣.

(٣) الفجر: ٦-١٤.

(٤) الفيل: ١-٥.

(٥) يوسف: ٣.

obeikandl.com

ج- تسلية النفوس، وإذهاب الغموم والهموم:

والدليل على ذلك نزول سورة يوسف عليه السلام في عام الحزن مخففة عن النبي ﷺ بعض أحزانه من جراء فقد عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره، وفقد زوجته خديجة التي كانت له خير زوجة وخير سكن. وكانت تواسيه بنفسها ومالها، فضلاً عن حصار المشركين للمسلمين في شعب أبي طالب.

ففي هذا الجو المليئ بالهموم والأحزان نزلت سورة يوسف على النبي ﷺ والمؤمنين تخفف عنهم بعض مصابهم، وتسليهم عما هم فيه من الهموم والأحزان.

د- التركيز في القصة القرآنية والنبوية على أخذ العظة والعبرة:

فالقصة القرآنية والقصة النبوية قصة هادفة تركز على الغرض والحكمة من سياقها وهو استخلاص العظة والعبرة والخروج بالدروس والمواعظ النافعة.

هـ- تجلية الحقائق وتصويرها في نفس السامع:

فأسلوب القص والسرد أفضل من أسلوب النصح والوعظ التقريري، فضلا لما يشتمل عليه من البرهنة على صحة تلك المواعظ من الواقع والنماذج الحية المعاشة.

و- إثارة الخيال وتحريكه:

القصة تتيح للخيال والفكر أن يجول في غياهب الماضي وآفاق الحاضر والمستقبل فيخرج عن ضيق الزمان والمكان إلى عالم رحب فسيح تتصل فيه حدود الزمان والمكان، فيستبصر الإنسان بالماضي ويستشرف المستقبل ويستطيع أن يتنبأ بمعالمه الكبرى من خلال تماثل التجارب، وتماثل السنن الكونية التي أودعها الله تعالى في هذا العالم.

ومن أمثلة القصص القرآني:

-قصة نوح -عليه السلام.

-قصة إبراهيم -عليه السلام.

-قصة موسى الكليم -عليه السلام.

-قصة عيسى -عليه السلام.

obeikandi.com

-قصة آدم –عليه السلام.

-قصة هود –عليه السلام.

-قصة صالح –عليه السلام.

-قصة لوط –عليه السلام.

-قصة شعيب –عليه السلام.

-قصة يعقوب ويوسف –عليهما السلام.

-قصة أيوب –عليه السلام.

-قصة يونس –عليه السلام.

-قصة داود –عليه السلام.

-قصة سليمان –عليه السلام.

-قصة بقرة بني إسرائيل.

-قصة طالوت.

-قصة ابني آدم.

-قصة أصحاب الكهف.

-قصة صاحب الجنتين.

-قصة الخضر وموسى –عليهما السلام.

-قصة ذي القرنين.

-قصة قارون.

-قصة سبأ.

-قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون.

-قصة مؤمن آل فرعون.

-قصة أصحاب الجنة.

-قصة أصحاب الأخدود.

-قصة الفيل.

obeikandl.com

ومن أمثلة القصص النبوي:

عن نافع عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: "خرج ثلاثة يمشون، فأصابهم المطر، فدخلوا في غارٍ في جبل، فانحطت عليهم صخرة" قال: "فقال بعضهم لبعض: ادعوا الله بأفضل عملٍ عملتموه: فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت أخرج فأرعى، ثم أجيء فأحلب، فأجيء بالحلاب، فآتي به أبوي، فيشربان، ثم أسقي الصبية وأهلي وامرأتي، فاحتبست ليلةً، فجئت، فإذا هما نائمان، فكرهت أن أوقظهما، والصبية يتضاغون عند رجلي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبيهما حتى طلع الفجر، اللهم إن كانت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فأفرج عنا فرجة نرى منها السماء". قال: "ففرج عنهم"

وقال الآخر: "اللهم إن كنت تعلم أني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء، فقالت: لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مئة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجليها؛ قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فأفرج عنها فرجة".

قال: "ففرج عنهم الثلثين".

وقال الآخر: "اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيرًا بفرقٍ من ذرةٍ فأعطيته، وأبى ذاك أن يأخذ، فعمدت إلى ذلك الفرق، فزرعته حتى اشتريت منه بقرًا وراعيها، ثم جاء، فقال: يا عبدالله! أعطني حقي.

فقلت: انطلق إلى تلك البقر وراعيها؛ فإنها لك. فقال: أتستهزئ بي؟ قال: فقلت: ما استهزئ بك، ولكنها لك. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فأفرج عنها. فكشف لهم"(١).

---

(١) أخرجه البخاري في "أحاديث الأنبياء"، باب: حديث الغار- (٣٤٦٥)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم في "الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار"، باب: قصة أصحاب الغار الثلاثة- (٢٧٤٣).

وعـــن أبي هريـــرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن ثلاثة في بني إسرائيل؛ أبـــرص، وأقرع، وأعمى، بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس".

قال: "فمسحه، فذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا، وجلدًا حسنًا، فقال: أيُّ المال أحبُّ إلـــيك؟ قـــال: الإبل، أو قال: البقر -هو شك في ذلك أن الأبرص والأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر- فأُعطي ناقة عشراء، فقال: يُبارك لك فيها.

وأتـــى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس".

قال: "فمسحه، فذهب، وأُعطي شعرًا حسنًا. قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر. قال: فأعطاه بقرةً حاملاً، وقال: يُبارك لك فيها.

وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: يرد الله بصري، فأبصر به الناس.

قـــال: فمسحه، فرد الله إليه بصرة. قال: فأي المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم. فأعطاه شاةً والدًا.

فأنـــتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من بقرٍ، ولهذا وادٍ من غنمٍ.

ثم إنـــه أتي الأبـــرص في صـــورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال في ســـفري، فـــلا بـــلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيرًا أتبلغ عليه في سفري.

فقـــال لـــه: إن الحقوق كثيرةٌ. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: ورثت لكابرٍ عن كابرٍ. فقال: إن كنت كاذبًا؛ فصـــيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثلما قال لهذا، فرد عليه مثلما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتـــى الأعمى في صورته، فقال: رجلٌ مسكين، وابن سبيل، وتقطعت بي الحبال في

سـفري، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري. فقال له: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرًا فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهـدك اليوم بشيء أخذته لله. فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك"[1].

وعـن أبي هريـرة عـن النبي ﷺ قال: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم، وصاحب جريج.

وكان جريج رجلاً عابدًا، فاتخذ صومعة، فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي، فقالت: يا جُريج! فقال: يا رب! أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فانصرفت.

فلما كان من الغد؛ أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج! فقال: يا رب! أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فانصرفت.

فلما كان من الغد؛ أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج! فقال: أي رب! أمي وصلاتي. فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات.

فتذاكـر بـنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغيٌّ يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم".

قال: "فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته، فأمكنتـه مـن نفـسها، فوقـع علـيها، فحملت، فلما ولدت؛ قالت: هو من جريـج. فأتوه، فاسـتـنزلوه، وهدمـوا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالـوا: زنيـت بهـذه البغـي فولدت منك. فقال: أين الصبيُّ؟ فجاؤوا به، فقال: دعوني حتى أصلي. فـصلى، فلما انصرف، أتى الصبي، فطعن في بطنه، وقال: يا غلام! من أبوك؟ قال: فلان الراعي".

قـال: "فأقـبلوا على جريج، يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من

---

(١) أخرجه البخاري في "أحاديث الأنبياء"، باب: حديث أبرص وأعمى وأقرع- (٣٤٦٤)، ومسلم في "الزهد والرقائق" (٢٩٦٤).

ذهب. قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا.

وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجلٌ راكبٌ على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدي، وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديه، فجعل يرتضع".

قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصها.

قال: "ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع، ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها.

فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حلقي؛ مر رجل حسن الهيئة، فقلت: اللهم اجعل ابن مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللهم اجعلني مثلها.

قال: إن ذاك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن، وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها"(١).

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في

---

(١) أخرجه البخاري في "أحاديث الأنبياء"، باب: حديث الغار- (٣٤٦٦)، ومسلم في "البر والصلة"، باب: تقديم بر الوالدين على التطوع- (٢٥٥٠)، واللفظ له.

تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة و لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم يترل فيه وحي الله وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت اغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا فأقول في نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال تعال فجئت

أمـــشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك فقلت بلى إني والله يـــا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن .سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى بـــه عـــني ليوشـــكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجـــو فـــيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك فقال رسول الله ﷺ أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثـــار رجـــال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقـــد عجـــزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون قد كان كافـــيك ذنـــبك استغفار رسول الله ﷺ لك فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهمـــا مثل ما قيل لك فقلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي فذكـــروا لي رجلـــين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لـــنا حـــتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صـــاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأســـلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علـــي أم لا ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي وإذا التفت نحـــوه أعـــرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حـــائط أبي قـــتادة وهو بن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلـــت يـــا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فـــسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجـــدار قـــال فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام

يبـــيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفـــع إلي كـــتابا من ملك غسان فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك و لم يجعلـــك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتـــيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قـــال لا بـــل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالـــت يـــا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كـــان مـــن أمره ما كان إلى يومه هذا فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر لـــيال حـــتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا فلما صليت صـــلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى علـــى جبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أن قـــد جاء فرج وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبـــشروننا وذهـــب قبل صاحبي مبشرون وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فـــأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نـــزعت لـــه ثـــوبي فكـــسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبـــستهما وانطلقـــت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجا فوجا يهنونني بالتوبة يقولون لتهـــنك تـــوبة الله عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الـــناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني والله ما قام إلي رجل من

المهاجـــرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول اللهﷺ قال رسول اللهﷺ وهـــو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال لا بل من عند الله وكان رسول اللهﷺ إذا سر اســـتنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله قال رسول اللهﷺ أمـــسك علـــيك بعض مالك فهو خير لك قلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت يا رســـول الله إن الله إنما نجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما لقيت فوالله مـــا أعلـــم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللهﷺ أحـــسن ممـــا أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول اللهﷺ إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجـــو أن يحفظـــني الله فيما بقيت وأنزل الله على رسولهﷺ ﴿**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِـــرِينَ وَالأَنْصَارِ**﴾ إلى قوله:﴿**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول اللهﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقـــال تـــبارك وتعالى: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ**﴾ -إلى قوله- ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ قال كعب وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل مـــنهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قـــضى الله فـــيه فبذلك قال الله ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه(١).

٤- التمثيل (ضرب الأمثال):

مـــن الوسائل الدعوية المستخدمة بكثرة في القرآن الكريم والسنة النبوية كذلـــك ما يـــسمى بالتمثـــيل أو ضرب الأمثال، وضرب المثل في القرآن الكريم والسنة النبوية له أثر

---

(١) أخـــرجه البخاري في "المغازي"، باب: حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)، ومسلم في "التوبة"، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه- (٢٧٦٩).

كبير في تقريب الأمور المعنوية في صورة حسية يلجأ فيها القرآن إلى التصوير والتشخيص وغيرها من الوسائل الفنية المعينة على تصوير حقيقة المعاني في نفس السامع بحيث يستطيع أن يتمثلها في مخيلته فتقع في نفسه، وتستقر في خاطره، فمن ذلك على سبيل المثال، قوله تعالى: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾**(1).

فالمثل المضروب هنا يصور حقيقة التوحيد ويقربها إلى الأذهان بنقلها من حقيقتها المعنوية إلى تلك الصورة الحسية، فشتان بين رجل خالص لرجل يتلقى أمرًا واحدًا وهمًا واحدًا، ويكون همه إرضاء سيد واحد، وبين عبد يتوزع ولاؤه لسادة مختلفين متشاكسين يأمره أحدهم بأمر ويأمره الآخر بخلافه(2)، فيظل في حيرة وتردد وتمزق نفسي لا يدري ما يصنع ولا من يطيع.

ولاشك أن هذا المثل بهذا التصوير قد قرر حقيقة التوحيد على أحسن تقرير وأبينه.

ومن الأمثلة القرآنية كذلك: قوله تعالى: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾**(3).

قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرًّا وجهرًا هو المؤمن، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرًا واضحًا بينًا لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾**(4).

---

(1) الزمر: ٢٩.

(2) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير في هذه الآية، وتفسير الطبري، والقرطبي.

(3) النحل: ٧٥.

(4) تفسير ابن كثير: تفسير سورة النحل آية (٧٥).

ومن الأمثلة القرآنية كذلك:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(1).

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(2).

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾(3).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(4).

ومن الأمثلة النبوية التي ضربها النبي ﷺ: قوله ﷺ: عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: "ضرب الله مثلا صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك! لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب

---

(١) البقرة:٢٦٦.

(٢) النحل:٩٢.

(٣) الأنعام:١٢٥.

(٤) الجمعة:٥.

الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم"[١].

ففي هذا الحديث يبين لنا النبي ﷺ كيف تكون الاستقامة على منهج الله تعالى صراطه المستقيم،كما يحذر المسلمَ من الاعوجاج عن هذا المنهج وهذا الصراط، فلا يميل إلى شيء من الشبهات الزائغة أو الشهوات الجامحة الباطلة، يستقيم على منهج الله تعالى كما هو وصف المؤمنين المفلحين بأهم "قالوا ربنا الله ثم استقاموا"، وجاء رجل إلى النبيﷺ يسأله نصيحة لا يسأل عنها أحدا بعده، فقال له رسول الله ﷺ: "قل: آمنت بالله، ثم استقم"[٢].

فالمؤمن الحق، هو الذي يستقيم على منهج الله تعالى ولا يفتح أبواب الشر، ولا يقع في الشبهات كي لا يقع في محارم الله تعالى، فهو سليم القلب نقيُّ الفطرة، مستقيمُ السلوك، متبعٌ لكتاب الله تعالى، مستجيبٌ لداعي الخير في قلبه، منصرفٌ عن شهوات نفسه الردية، وغواية الشيطان ووساوسه.

ومن أمثلة ذلك:

حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان[٣] فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٤/١٨٣)، والنسائي في "الكبرى" (٦/٣٦١)، والحاكم في "المستدرك" (١٤٤٨)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة و لم يخرجاه" وأقره الذهبي في "التلخيص"، وصححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٣٨٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في "الإيمان"، باب: جامع أوصاف الإسلام- (٣٨).

(٣) قال العلماء: "أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخالفة نزع ثوبه، أو أشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم، وهو طليعتهم ورقيبهم، قالوا: إنما يفعل ذلك؛ لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرًا، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو. وقيل: معناه: أنا النذير الذي أدركني جيش العدو، فأخذ ثيابي، فأنا أنذركم عُريانا" [النووي: شرح مسلم- تحقيق: عبدالله أحمد أبي زينة- دار الشعب- القاهرة- (٥/١٤٦).].

مكـــانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به[١] ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق[٢].

عـــن أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعـــل يترعهـــن ويغلبـــنه فيقـــتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها"[٣][٤].

عـــن أبي هريـــرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجـــل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[٥].

---

(١) قال الطيبي: "شبه ﷺ نفسه بالرجل وإنذاره بالعذاب القريب بإنذار الرجل قومه بالجيش المصبح، وشـــبه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره ومن صدقه" [أحمد ابن حجر العـــسقلاني: فـــتح الـــباري بشرح صحيح البخاري- رقم كتبه: محمد عبدالباقي- دار الريان- القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٠٧هـــ-١٩٨٧م- (٣٢٤/١١).].

(٢) أخـــرجه الـــبخاري في "الاعتـــصام بالكتاب والسنة"، باب: الاقتداء بســـنن رســـول الله ﷺ (٧٢٨٣)، وفي غـــير موضـــع من صحيحه، ومسلم في "الفضائل"، باب: شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٣).

(٣) وفي هذا الحديث "شبه النبي ﷺ تهافت أصحاب الشهوات في المعاصي التي تكون سببًا في الوقوع في النار بتهافت الفراش بالوقوع في النار اتباعًا لشهواتها، وشبه ذبه العصاة عن المعاصي بما حذرهم بـــه، وأنـــذرهم بذب صاحب النار الفراش عنها. وقال عياض: شبه تساقط أهل المعاصي في نار الآخرة بتساقط الفراش في نار الدنيا" [فتح الباري- (٣٢٦/١١).].

(٤) أخـــرجه البخاري في "الرقاق"، باب: الانتهاء عن المعاصي- (٦٤٨٣)، ومسلم في "الفضائل"، باب: شفقته ﷺ على أمته- (٢٢٨٤).

(٥) أخـــرجه البخاري في "المناقب"، باب: خاتم النبيين ﷺ (٣٥٣٤)، ومسلم في "الفضائل"، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٩).

وعن جابر بن عبدالله قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلا فقال بعضهم إنه نائم فقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا: أولوها له يفقهها فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: فالدار الجنة ومن عصى محمدًا ﷺ فقد عصى الله ومحمد ﷺ فرق بين الناس(١).

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أحادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به(٢).

٥-المجادلة بالحسنى:

والمجادلة بالحسنى يقصد بها محاورة الخصم بما يليق به ويناسبه من الحجج والأدلة مع استخدام كافة الوسائل المناسبة لحال الخصم رجاء إقناعه وهدايته وإزالة ما لديه من شبه الباطل.

قال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في "الاعتصام بالكتاب والسنة"، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري في "العلم"، باب: فضل من علم وعلم (٧٩)، ومسلم في "الفضائل"، باب: بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ (٢٢٨٢).

(٣) النحل: ١٢٥.

وقال تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١].

قال ابن كثير: قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف.

وقال آخرون: بل هي باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد.

وقوله: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحينئذ ينتقل عن الجدال إلى الجلاد، ويقاتلون بما يردعهم ويمنعهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف.

قال مجاهد: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ يعني: أهل الحرب، ومن امتنع منهم من أداء الجزية[٢].

والراجح أن الآية غير منسوخة كما اختار ذلك ابن جرير وهو الصحيح لأنه لا

---

(١) العنكبوت: ٤٦.

(٢) المختصر الصحيح لتفسير القرآن العظيم، اختصار: د.عبدالحميد هنداوي- دار الهدى-القاهرة- الطبعة الأولى- ١٤٢٣هـ-٢٠٠٠م- (٢/٢٤٥).

يبدأ بالقتال قبل الدعوة، وقد تقتضي دعوة المخالف مجادلته بالحسنى لإزالة ما لديه من شبه إن ظهرت أمارات استجابته وميله إلى الحق ورغبته فيه.

وقد ضرب القرآن أروع الأمثلة لهذه المجادلة بالحسنى في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾(١).

فقد أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بدعوة أهل الكتاب لعقيدة التوحيد وعلمه كيف يحسن مجادلتهم بتقرير المبادئ المشتركة بينهم التي تؤسس قاعدة ومنطلقًا لدعوتهم، وذلك في قوله: ﴿**وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ**﴾، فقوله: ﴿**من كتاب**﴾؛ يشمل جنس الكتب السماوية فيبدأ في دعوتهم من منطلق الاتفاق على أن ثمة كتبًا أنزلت من عند الله، وثمة رسلاً أرسلت بها، وهذا بالضرورة يقتضي الإيمان بإله عظيم قد أنزل الكتب وأرسل الرسل وأمر أن يُعبد وتُطاع رسله.

ثم أمره أن يبدأ في مجادلتهم كذلك بتقرير مبدأ العدل والإنصاف للخصم والإقرار بما معه من الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ**﴾.

ثم يؤكد على مسلّمة ضرورية تكون منطلقًا لدعوة التوحيد، وهي أن الله المعبود بحق ينبغي أن يكون هو الرب الخالق، وإذا كان ربنا وخالقنا هو ربهم وخالقهم فينبغي أن يكون الإله المعبود واحدًا، وهذا ما تقرره الآية في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**﴾.

فهو يدل على الاشتراك في الربوبية الموجب للاشتراك في العبودية، فالجميع مربوبون لله تعالى مقهورون لعظمته، ومع ذلك فالمؤمنون يقرون بربوبيته وعبوديته اختيارًا، والمشركون واقعون في ربوبيته اضطرارًا منكرون لعبوديته اختيارًا(٢)، وقوله تعالى: ﴿**لَنَا**

---

(١) الشورى: ١٥.

(٢) قال ابن كثير في تفسير هذه الجملة: "﴿**اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**﴾؛ أي: هو المعبود لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختيارًا، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارًا فلله يسجد من في العالمين طوعًا وإجبارًا" [تفسير ابن كثير- (٤/١٠٩)].

﴿أَعْمَالُــنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، يقرر المسئولية الكاملة لكل إنسان عن عمله، مما يجعل هؤلاء المدعوين يقتنعون بأن عاقبة ما هم عليه تعود على أنفسهم لا على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُــلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]، فيدعوهم ذلك إلى الاهتمام بالأمر، والثقة بمن يدعوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم.

وقــوله تعالى: ﴿لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ أي: لا خصومة. قال مجاهد[2]: وهذا يدل على غاية المسامحة في دعوهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

وشبيه بهذه الآية وهي أدل على مطلوبنا من ضرورة المجادلة بالحسنى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَــنْ يَــرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُــبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[3].

قال ابن كثير: "يقول تعالى مقررًا تفرده بالخلق والرزق، وانفراده بالإلهية أيضًا، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض أي: بما يترل من المطر وينبت من الزرع إلا الله، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره.

وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾، هذا من باب اللف والنشر، أي: واحد من الفريقين مبطل، والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو علــى الضلال، بل واحد منا مصيب، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

قال قتادة: قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد، إن أحد الفريقين لمهتد.

---

(١) سبأ: ٢٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير في الآية (١٥) الشورى.

(٣) سبأ: ٢٤-٢٦.

وقال عكرمة، وزياد بن أبي مريم: معناه: إنا نحن لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين.

وقوله: ﴿**قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾؛ معناه: التبري منهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا. كما قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾. وقال: ﴿**قُلْ يأيها الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾.

وقوله: ﴿**قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا**﴾؛ أي: يوم القيامة، يجمع الخلائق في صعيد واحد، ثم يفتح بيننا بالحق، أي: يحكم بيننا بالعدل، فيجزي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية[١].

ومع وضوح تلك المبادئ التي تقررها الآية فنحتاج إلى وقفة عند أسلوب الآية الكريمة في محاورة هؤلاء المشركين ومجادلتهم بالحسنى فهي قد استخدمت عددًا من الأساليب البلاغية الحوارية الجيدة الدالة على حسن مجادلة الخصم منها:

١-الاعتماد على تقرير الخصم ليقر بالحقيقة بنفسه: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾.

٢-رغم وضوح الأمر لدى المؤمنين بما لا شك فيه لديهم بمعرفة المهتدي والضال؛ فإن أسلوب المحاروة مع الخصم يشتمل على كثير من التأدب والتواضع، والإنصاف للخصم فهو يبدأ بمسلمة عقلية بديهية هي: "أنه لابد أن أحدنا مهتد والآخر ضال".

فإذا كان الأمر كذلك فقد وجب تمحيص الأمر، وإذا بدأ الحوار بذلك فهذا غاية التجرد والنزاهة والموضوعية المنشودة في البحث العلمي؛ لأنه يبدأ بفرضية مجردة لا

---

(١) المختصر الصحيح لـ"تفسير القرآن العظيم": (٢/٣٣٧).

تعـــصب فيها ولا تحيز، هذه الفرضية تقول: "إننا نفترض أن واحدًا من الفريقين غير معين مهـــتد، والآخر ضال" ونريد أن نبين بالدليل والبرهان النظري من المهتدي ومن الذي في ضلال مبين.

ولو بدأ الحوار بطريقة "إننا مؤمنون وأنتم كافرون" لانتهى الأمر، ولاحتج المشركون بأنه لا سبيل للجدال والحوار مع قوم يتعصبون لما هم عليه من البداية.

وهـــذا لا يعني أبدًا شك المؤمنين فيما هم عليه، ولكنهم رغم ثقتهم التامة بما هم عليه فإنهم يتترلون مع الخصم استدراجًا له وتلطفًا به.

ومن بين الأمثلة القرآنية أيضًا على تعليم المؤمنين المجادلة بالتي هي أحسن، قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَـــيْئًا وَلاَ يَـــتَّخِذَ بَعْـــضُنَا بَعْـــضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**[1].

قـــال ابـــن كثير: "هذا الخطاب يعم أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، ومن جرى مجـــراهم **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ﴾** والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، كما قـــال هاهـــنا، ثم وصفها بقوله: **﴿سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾**؛ أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: **﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾**، لا وثنًا، ولا سليبًا، ولا طاغوتًا، ولا نارًا، ولا شيئًا، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل.

قـــال الله تعـــالى: **﴿وَلَقَـــدْ بَعَثْـــنَا فِـــي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُـــوتَ﴾**، ثم قـــال تعالى: **﴿وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾**. وقال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله. وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض.

﴿فَـــإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

---

(١) آل عمران: ٦٤.

فانظـــر كيف يأمر بدعوتهم بالحسنى بندائهم بأهل الكتاب ترغيبًا لهم لا بالمشركين أو الكافرين وإن كانوا كذلك، ثم يقول لهم تعالوا: تشويقًا وترغيبًا.

ثم يبين لهم أن ما يدعون إليه هو كلمة سواء تسري عليهم وعلى جميع المؤمنين.

وهكـــذا نجـــد أن القرآن الكريم قد ضرب أروع الأمثلة في المحاورة والمجادلة بالتي هي أحـــسن، ويتـــضح هـــذا بصورة واضحة فيما سجله القرآن الكريم من محاورات الأنبياء والرسل مع أقوامهم.

المجادلة في سنة النبي ﷺ:

وفي ســـنة النبي ﷺ العديد من الأمثلة لمجادلة النبي ﷺ قومه بالتي هي أحسن، وتختلف درجة المحاورة والجدال من قوم إلى قوم بحسب درجة ميلهم إلى الحق أو إعراضهم عنه.

فحينما جاء الكافرون يحاورون النبي ﷺ في شأن عبادة آلهتهم ويعرضون عليه أن يعبد إلههـــم عامًـــا ويعـــبدوا إلهـــه عامًا جاء الرد الحاسم من النبي ﷺ مسجلاً عليهم كفرهم وضلالهم، ونزل القرآن الكريم يعلم النبي ﷺ كيف يرد ذلك في قوة وحسم[1].

فـــترل قـــوله تعـــالى: ﴿**قُلْ يأيها الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنْتُمْ عَابِـــدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[2].

وقـــد ســـجل القـــرآن والسنة كثيرًا من محاورات النبي ﷺ ومجادلاته مع أقوامه من المشركين وأهل الكتاب بما لا نريد الإطالة بذكره.

٦- المحاجة والمناظرة:

المحاجـــة أو المناظرة هي مبادلة الخصم الحجة بالحجة فهي مفاعلة من حجَّه يحجه محاجَّة، والمفاعلة تكون من طرفين كالمباراة والمباهاة والمباهلة والملاعنة ونحوها، فهي مبادلة الحجج بين خصمين كل منهما متمسك بما معه منافح عنه، ويحاول إقناع خصمه بما معه.

---

(١) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير الطبري لهذه السورة.

(٢) الكافرون: ١-٦.

وهي بذلك تختلف عن المحاورة والمجادلة لمن يبدي بعض الشبه ويريد جوابًا عنها ابتغاء الهداية وإزالة ما يحيك بصدره مما يلتبس عليه.

فالمجادل أو المحاور يعلن أنه على استعداد بالاستجابة للحق إذا ما أزيل ما يعترض من الشبه.

أمـــا المحاج والمناظر فيزعم أنه على حق يريد أن يناظر عليه خصمه للبرهنة على صحة ما معه وبطلان ما لدى الخصم.

فكأن المحاور أو المجادل يناقش في أمر هو بصدد إثباته، والمحاج أو المناظر يزعم أنه على يقين من أمره غير شاك فيه.

المحاجة والمناظرة في القرآن الكريم:

من أمثلة المحاجة في القرآن الكريم ما حكاه القرآن من محاجة النمروذ لإبراهيم –عليه الـــسلام–، وذلك في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْـــكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾(١).

وكذلك محاجة قوم إبراهيم له في قوله تعالى: ﴿**وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَـــدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَـــلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَـــزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَـــمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾(٢).

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) الأنعام: ٨٠-٨٣

أمثلة من محاجة النبي ﷺ:

من أمثلة محاجة النبي ﷺ ما ذكره القرآن من نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٣].

والملاحظ في هذه الأمثلة جميعها أن المحاجة كانت من طرفين يتمسكان بما معهما ويدّعي كل واحد من الفريقين أنه على الحق، وأن معه من الأدلة ما يحاجج به وينافح عن

---

(١) البقرة: ١٣٥-١٤٠.

(٢) آل عمران: ٢٠.

(٣) آل عمران: ٦١.

عقيدته.

فالنمــــروذ يزعم أنه يستحق الألوهية ويبرهن على ذلك بالبراهين الزائفة التي يدلل بها على ادعائه القدرة على الإحياء والإماتة حيث أتى برجلين قد استحقا عنده القتل.

فضرب عنق أحدهما، وعفا عن الآخر ثم زعم أنه بذلك يحيي ويميت.

وإبـــراهيم -عليه السلام- لم يَرُدّ حجته بكونها باطلة و لم يجادل فيها ببيان بطلانها بل تنزل عن ذلك، واستدرج خصمه لحجة لا يستطيع فكاكًا عنها، وهي قوله تعالى: **﴿قَالَ إِبْـــرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[1].

---

(١) قـــال ابن كثير: "**﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾**؛ أي: إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة؛ لأنها لم تحدث بنفسها، فلابد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال المحاج -وهو النمرود-: **﴿أنا أحيي وأميت﴾**.

قال قتادة، ومحمد بن إسحاق، والسدي، وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة.

والظاهـــر -والله أعلم- أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جوابًا لما قال إبراهيم، ولا في معناه؛ لأنه غير مانـــع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام؛ عنادًا ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنـــه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: **﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾**؛ ولهذا قـــال له إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: **﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾**؛ أي: إذا كـــنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته -فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما تدعي فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي: أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة. قال الله تعالى: **﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾**؛ أي: لا يلهمهم حجة ولا برهانًا، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد" [تفسير ابن كثير- (١/٣١٤)].

٧-الشعر

موقف الإسلام من الشعر وفن القول

لم يقف الإسلام من الشعر الجيد موقف معارضة أو عداء، فما أكثر الروايات الدالة على سماع النبي ﷺ للشعر، واستحسانه إياه، واغتباطه به، وحثه عليه، كما كان للخطابة في عصر صدر الإسلام – بدءًا من بعثة النبي ﷺ - قيمتها ومكانتها.

عن ابن عمر –رضي الله عنهما – قال: قدم رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: "إن من البيان لسحرًا"(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: **ألا كل شيء ما خلا الله باطل**"(٢).

وعن عمرو بن الشريد، عن أبيه رضي الله عنه قال: ردفت رسول الله ﷺ يومًا فقال: "هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء" قلت: نعم. قال: "هيه"، فأنشدته بيتًا، فقال: "هيه"، ثم أنشدته بيتًا، فقال: "هيه"، حتى أنشدته مائة بيت(٣).

وعن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في بعض المشاهد، وقد دميت أصبعه، قال:

وفي سبيل الله ما لقيت(٤) هل أنت إلا إصبع دميت

وعن البراء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت: "أُهج المشركين، فإن جبريل معك"(٥) وكان رسول الله ﷺ يقول لحسان: "أجب عني، اللهم أيده بروح

---

(١) أخرجه البخاري في "النكاح"، باب: الخطبة- (٥١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في "المناقب"، باب: أيام الجاهلية (٣٨٤١)، ومسلم في "الشعر" (٢٢٥٦).

(٣) أخرجه مسلم في "الشعر" (٢٢٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في "الجهاد والسير"، باب: من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، ومسلم في "الجهاد والسير"، باب: ما لقي النبي ﷺ (١٧٩٦).

(٥) أخرجه البخاري في "المغازي"، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (٤١٢٤)، ومسلم في "فضائل الصحابة"، باب: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٨٦).

obeikandi.com

القدس".[1]

وعـــن عائشة – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ قال: "أُهجوا قريشًا؛ فإنه أشد عليهم من رشق بالنبل".[2]

وعـــنها – رضـــي الله عنها – قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله".

وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "هجاهم حسان فشُفي واشتفى".[3]

وعن البراء –رضي الله عنه– قال: كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبر بطنه، يقول:

والله لـــولا الله مـــا اهتديـــنا ولا تـــصدقنا ولا صـــلينا

فأنـــزلن ســـكينة علـيـــنا وثـــبت الأقـــدام إن لاقيـــنا

إن الألى قـــد بغـــوا علـيـــنا إذا أرادوا فتـــنة أبيـــنا

يرفع بها صوته: "أبينا أبينا".[4]

وعن أنس رضي الله عنه قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق وينقلون التراب، وهم يقولون:

---

(١) أخرجه البخاري في "بدء الخلق"، باب: ذكر الملائكة- (٣٢١٢)، ومسلم في: "فضائل الصحابة"، باب: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٨٥)، ولفظه عن أبي هريرة، أن عمر مر بحسان وهو ينشد الـــشعر في المسجد فلحظ إليه فقال: قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: "أجب عني اللهم أيده بروح القدوس" قال: اللهم نعم. وهذا لفظ مسلم.

(٢) أخرجه مسلم في "فضائل الصحابة"، باب: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٩٠).

(٣) انظر الذي قبله.

(٤) أخرجه البخاري في "الجهاد والسير"، باب: حفر الخندق (٢٨٣٧)، ومسلم في "الجهاد والسير"، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق (١٨٠٣).

علـــى الجهـــاد مـــا بقيـــنا أبـــدا   نحـــن الـــذين بايعـــوا محمـــدا

يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

فاغفـــر للأنـــصار والمهاجـــرة[١]   اللـــهم لا عـــيش إلا عيش الآخرة

وعن كعب بن مالك ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: "إن الله تعالى قد أنزل في الشعر ما أنزل". فقـــال الـــنبي ﷺ: "إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونه به نضح النبل"[٢].

عـــن عائـــشة – رضي الله عنها – قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا، يُفاخر عن رسول الله ﷺ، أو يُنافح. ويقول رسول الله ﷺ: "إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ"[٣].

وعـــن أنس ﷺ قال: كان للنبي حاد يقال له: أنجشة، وكان حسن الصوت. فقال له النبي ﷺ: "رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير". قال قتادة: يعني ضعفة النساء[٤].

وعـــن عائشة – رضي الله عنها – قالت: ذُكر عند رسول الله ﷺ الشعر فقال رسول الله ﷺ: "هو كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح"[٥].

---

(١) أخـــرجه البخاري في "الجهاد والسير"، باب: البيعة في الحرب أن لا يفروا (٢٩٦١)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم في "الجهاد والسير"، باب: غزوة الأحزاب وهي الخندق (١٨٠٥).

(٢) أخـــرجه أحمـــد في "مـــسنده" (٣٨٧/٦)، وابـــن حبان في "صحيحه" (٤٧٠٧)، والبيهقي في "الكبرى"، (٢٣٩/١٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (١٦٣١)..

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٤٦)، والبغوي في "شرح السنة" (٣٤٠٨)، وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح غريب".

(٤) أخـــرجه الـــبخاري في "الأدب"، بـــاب: المعاريض مندوحة عن الكذب (٦٢١١)، ومسلم في "الفضائل"، باب: رحمة النبي ﷺ للنساء (٢٣٢٣).

(٥) أخـــرجه البيهقـــي في "الكبرى" (٢٣٩/١٠)، والدارقطني في "سننه" (١٥٥/٤)، وأبو يعلى في "مـــسنده" (٤٧٦٠)، وذكـــره البيهقـــي في "المجمـــع" (١٢٢/٨)، وقال: "رواه أبو يعلى وفيه عبدالـــرحمن بن ثابت بن ثوبان وثقه دحيم وجماعة وضعفه ابن معين وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح، قال البيهقي: "وصله جماعة والصحيح عنه عن النبي ﷺ مرسل"، وحسن إسناده الشيخ الألباني كما في "الصحيحة" (٤٤٨).

obeikandl.com

إن الذي يقف على هذه النصوص لا يكاد يشك طرفة عين في أن للشعر وغيره من فنون القـــول مترلـــة كبيرة في الإسلام، وهذا يفسر لنا أن ما ورد من ذم الشعر في بعض النصوص القرآنية أو النبوية ليس ذمًا للشعر على الإطلاق، وإنما هو للقبيح فقط من الشعر.

وهــذا مــا نستطيع أن نتبينه من خلال النظر في تلك النصوص التي تحمل ذمًا للشعر والشعراء.

فمن ذلك: قول الله تعالى في آخر سورة الشعراء: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ(٢٢٤) أَلَـمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ(٢٢٦) إِلا الَّذِينَ آمَـنُوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾**[١].

وقـوله تعالى في سورة ق: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾**[٢].

وعـــن أبي هريـــرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: "لأن يمتلئ جوف رجل قيحًا حتى يَرِيَهُ[٣] خيرٌ له من أن يمتلئ شعرًا"[٤].

وعن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "الحياءُ والعيُّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق"[٥].

وعن أبي ثعلبة الخشني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا

---

(١) الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧.

(٢) ق: ١٦-١٨.

(٣) يريه: قال الأصمعي يريه من ورى يري: أي يحرقه، أو يصيبه بالرئة.

(٤) أخـــرجه البخاري في "الأدب"، باب: ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر (٦١٥٤)، ومسلم في "الشعر" (٢٢٥٧).

(٥) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥/٢٦٩)، والترمذي (٢٠٢٧)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٧٧٠٦)، والحديث صححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٣٢٠١).

يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساويكم أخلاقًا، الثرثارون، المتشدقون، المتفيقهون"(١).

وروى الترمذي نحوه عن جابر ﷺ وفي روايته قالوا: يا رسول الله! قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: "المتكبرون"(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يخرج قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقرة بألسنتها"(٣).

وعن عبدالله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها"(٤).

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مررت ليلة أُسري بي بقوم تُقْرَضُ شفاههم بمقاريضَ من النار، فقلت: يا جبريل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون"(٥).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من تعلم صرف الكلام؛ ليسبي به

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٤/١٩٣)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤/٢٥١) من طريق: مكحول عن أبي ثعلبة الخشني، وذكره الهيثمي في "المجمع" (٨/٢١)، وقال: "رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح". وقال الشيخ الألباني في الصحيحة (٧٥١): "الحديث منقطع فإن مكحولاً لم يسمع من أبي ثعلبة كما في "التهذيب"، لكن هذا الانقطاع ينجبر بمجيء الحديث من طرق أخرى" وانظر حديث جابر في الهامش الذي بعده.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وصححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٧٩١).

(٣) أخرجه أحمد في "مسنده" (١/١٧٥) وذكره الهيثمي في "المجمع" (٨/١١٦)، وقال: "رواه أحمد والبزار من طرق وفيه راو ولم يسم" والحديث صححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٤١٩)..

(٤) أخرجه أحمد في "مسنده" (٢/١٦٥)، وأبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣)، وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه". والحديث صححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٨٨٠).

(٥) أخرجه أحمد في "مسنده" (٣/١٢٠)، وانظر الصحيحة (٢٩١).

قلوب الرجال أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً"[١].

وعن عمرو بن العاص ﷺ أنه قال يومًا، وقام رجل فأكثر القول، فقال عمرو: لو قصد في قوله فكان خيرًا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لقد رأيت أو أمرت — أن أتجوز في القول، فإن الجواز هو خير"[٢].

وعن عائشة —رضي الله عنها- قالت: ذُكر عند رسول الله ﷺ الشعر فقال رسول الله ﷺ: "هو كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح"[٣].

وعن أبي سعيد الخدري -ﷺ- قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال رسول الله ﷺ: "خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان؛ لأن يمتلئ جوف رجل قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا"[٤].

التعليق على النصوص الواردة في موقف الإسلام من الشعر:

إن هذه النصوص التي تستحسن الشعر وتمدحه، وتلك التي تستهجنه وتذمه ليس بينها أدنى تعارض على الإطلاق؛ لأن كل طائفة منها موجه إلى نوع معين من الشعر غير النوع الآخر، وهذا ما تصرح به بعض النصوص الواضحة المحكمة التي جمعت بين طرفي القضية، فقد ذكر عند رسول الله ﷺ الشعر، فقال: "هو كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح" هذا

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٠٦)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٢٥٢/٤) من طريق: الضحاك بن شرحبيل عن أبي هريرة ﷺ. وذكره المنذري في "الترغيب والترهيب" (٦٧/١) وقال: يشبه أن يكون فيه انقطاع فإن الضحاك بن شرحبيل ذكره البخاري وابن أبي حاتم و لم يذكروا له رواية عن الصحابة والله أعلم.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٠٨)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤٩٧٥)، قال المناوي في "فيض القدير" (٥/ ٢١٨): "فيه سليمان بن عبدالحميد النهراني قال في "الكاشف": "ضعيف" وفي ذيل الضعفاء: كذبه النسائي وإسماعيل بن عياض ليس بقوي وابنه محمد قال أبو داود ليس بذاك وقال أبو حاتم لم يسمع من أبيه وقد حدث به عنه وضمضم بن زرعة ضعفه أبو حاتم وأبو طيبة مجهول".

(٣) تقدم تخريجه قريبًا وهو حسن الإسناد كما بيناه هناك.

(٤) أخرجه مسلم في "الشعر" (٢٢٥٩).

هو القول الفصل.

وذلـــك أننا إذا نظرنا في هذه النصوص التي تمثل موقف الإسلام من الشعر ومن القول عمومًا، فإننا نجد أنفسنا أمام طائفتين من النصوص:

الأولى: نـــصوص يـــستفادُ مـــنها إباحة الشعر بل وإستحسانه أو وجوبه في بعـــض الأحيـــان.

الثانية: نصوص يفهم منها كراهية الشعر أو حرمته في بعض الأحيان كذلك.

والمنهج الصحيح في التعامل مع النصوص الشرعية هو العمل بها جميعًا ومحاولة التوفيق بينها عندما يبدو هناك تعارض ظاهري مظنون.

ومعـــنى ذلـــك أن نقول: إن هذه النصوص جميعًا لا تعارض بينها فيما تؤدي إليه من أحكام أو نتائج.

فالـــشعر مباح إذا لم يشتمل على إثم كهجاء أعراض المسلمين، أو الغزل الفاحش، أو مـــدح الـــرجل بمـــا لـــيس فيه، أو العصبية الجاهلية والفخر القبلي الجاهلي بالأحساب والأنـــساب، فهذا كله ونحوه حرام، فإذا لم يشتمل الشعر على شيء من ذلك، فهو مباح على أقل تقدير، إن لم يكن مستحسنًا مندوبًا إليه.

فـــإذا كـــان هذا الشعر تأملات في الكون يستدل بها على قدرة الله تعالى ووحدانيته وصـــفاته، أو تعـــبيرًا عـــن القيم والأخلاق الفاضلة ومدح واستحسان لها، وذم للقبيح والـــرديء مـــنها، فهـــذا الشعر مستحسن مندوب إليه في الإسلام إن لم يرتق إلى مرتبة الواجب.

فـــإن كـــان دفاعًـــا عن أعراض المسلمين، وانتصارًا للدين وبيانًا للعقيـــدة، ومعالم الإســـــلام وأركانه وقيمه، فهذا لاشك واجب مطلوب فعله من القادر عليه من الأمة، وهو من الواجب الكفائي الذي إن قام به البعض سقط عن الباقين، وإلا أثمت الأمة كلها بتركه.

فهـــذا حكم الأدب الإسلامي الراقي الذي يدافع عن الدين والعقيدة والقيم وحرمات المـــسلمين، حكمـــه أنـــه واجب كفائي، تأثم الأمة بتضييعه، وفاعله مثاب عليـــه أعظم

الشواب؛ لأنه يرفع بذلك الإثم عن الأمة بتصديه لهذا الأمر دونهم وكفاية الأمة في هذا الجانب.

وبناء على ذلك يمكننا أن نفهم آية الشعراء، فهي لا تحمل ذمًا على الإطلاق للشعر والشعراء.

فالشعراء الذين يتبعهم الغاوون، والذين قال فيهم النبي ﷺ: "لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا يريه خير له من أن يمتلئ شعرًا"، والشاعر الذي قال عنه النبيﷺ: "خذوا الشيطان" أو "أمسكوا الشيطان"(١) حينما سمعه ينشدهم. أولئك هم الشعراء الذين يخوضون في الشعر المحرم من هجاء أعراض المسلمين، والفخر بالأحساب والأنساب، والغزل الفاحش، ومدح الرجل بما ليس فيه، ونحو ذلك، فهؤلاء هم الغاوون، وأتباعهم هم الغاوون الضالون كذلك.

فالله سبحانه وتعالى حينما ذم الشعراء لم يجعل هذا الحكم مطلقًا أو مبهمًا غير مفسر ولا معلل، بل أتبعه عقب ذلك بالتحليل والبيان، فقال: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾**(٢).

فكأن هذه هي سمات الشعر المذموم، وسمات الشعراء المذمومين، وهم الذين يخوضون في كل واد وفي كل غرضٍ حلال أو حرام، ويهيمون فيه.

وهمُ الكذبة الفجرةُ الذين يقولون ما لا يفعلون مما لا يعتقدونه، فشعرهم نفاق وتملق وكذب، والقرآن إنما يريد فقط الصدق الاعتقادي لا الصدق الواقعي في الشعر، فهذا أمر آخر، فالمطلوب من الشعر ليس هو الصدق في مطابقة الواقع مطابقة حرفية، وإنما المقصود منه هو الصدق الفني الذي يصدر عن شعور صادق وإحساس حقيقي بما يقول، وذلك لا يكون إلا بصدق الاعتقاد وصحته.

والقرآن حيث يصدر حكمه بذم الشعراء المتصفين بهذه الصفات، فإنه يتبع هذا الذم

---

(١) تقدم تخريجه، وهو في صحيح مسلم.

(٢) الشعراء: ٢٢٥-٢٢٦.

باستثناء طائفة الشعراء المؤمنين الذين آمنوا بالله تعالى، وعملوا الصالحات، فالتزموا بالفرائض، واجتنبوا النواهي والمحارم، وذكروا الله كثيرًا، فلم يغلب عليهم الشعر، ولم يلههم عن ذكر الله وعن الصلاة، وانتصروا بشعرهم فوظفوه لخدمة دينه والدفاع عنه والذب عن حرماته، وبيان العقيدة الصحيحة الناصعة، والقيم والأخلاق الإسلامية الأصيلة.

وهذا واضح في هذا الاستثناء المفصل المبين: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...﴾[1]. ومن هنا نعلم أن هذه النصوص القرآنية والحديثية ليس بينها ثمة تعارض؛ لأن كل طائفة منها إنما تنزل على نوع من الشعر، وليست مطلقة في جميع أنواعه.

ومن ثم فإن الشعر ترد عليه الأحكام التكليفية الخمسة، فتارة يكون واجبًا، وتارة يكون مستحبًا أو مندوبًا إليه، وتارة يكون مباحًا، وتارة يكون مكروهًا، وأخرى يكون حرامًا. والأساس الجوهري الذي يصنف الشعر على أساسه ويعطي حكمه من حيث الحل والحرمة هو الفكرة التي يشتمل عليها هذا الشعر، ومن ثم ندرك أن الإسلام ينظر إلى الشعر لا باعتباره شكلاً مجردًا، ولكنه يولي اهتمامًا كبيرًا لشقه الثاني، وهو الفكرة التي يحتويها القالب الفني، وعلى أساس هذه الفكرة يصدر شطر الحكم النقدي، أقول: شطر الحكم، ولا أقول: كله؛ لأن الشعر له شقان أو عنصران هما الفكرة والقالب الفني، والإسلام لم يهمل الحكم على الشكل على حساب المضمون، بل أعطى لكل نصيبه من الحكم بميزان عدل لا يبخس الناس شيئًا.

مبادئ الأحكام النقدية الإسلامية:

من خلال تلك النصوص السابق عرضها نستطيع أن نقف على **أهم مبادئ الأحكام النقدية الإسلامية**.

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

أولاً: سمو الغاية

صحة الغاية أو المقصد هي الركن الركين، وهي الشرط الأعظم لقبول جميع الأعمال في الإسلام، وهذا المبدأ تقرره نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، أوضحها الحديث المشهور: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى".

فجميع الأعمال (والأقوال كذلك، لأن القول عمل) لا تصح ولا يثاب المرء عليها إلا بالنية الصالحة التي يبتغي بها وجه الله تعالى وعظم أجره وفضله في الدنيا والآخرة.

هذه الغاية هي التي تحدد أغراض الشعر في الإسلام، فلابد أن تكون تلك الأغراض أغراضًا شريفة، ذات هدف نبيل، وغاية عالية، يبتغي بها الأجر من الله تعالى وحده، ويتخذ فيها الشعر سلاحًا يجاهد به في سبيل الله، إن اللسان والسنان قرينان في الإسلام وسلاحان حميمان لا يفترقان، فالشاعر أو الأديب الإسلامي هو وحامل السيف في سبيل الله سواء، كلاهما يجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله.

ويظهر ذلك بوضوح تام في استثنائه تعالى هؤلاء الشعراء المسلمين المجاهدين من جملة الشعراء المذمومين في قوله تعالى: ﴿**إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...**﴾[1].

إن الغاية إذًا من الشعر في الإسلام هي الانتصار لهذا الدين وهذا ما يظهر واضحًا في حث النبي ﷺ حسان على هجاء المشركين، وهذه الغاية السامية يمكن أن تتخذ أغراضًا شعرية متنوعة.

فقد يكون مدحًا أو ثناء على الله تعالى، أو مدحًا لرسوله ﷺ أو مدحًا لشريعة الإسلام وتعاليمها الغراء أو مدحًا للخلق القويم، والسلوك النبيل.

وقد تكون هجاء للشرك والمشركين، وما هم عليه من أحكام وأعراف وتقاليد مخالفة لما جاء به الإسلام.

وقد تكون وصفًا لآيات الله الكونية، ودلائل قدرته الوجودية.

---

(١) الشعراء: ٢٢٧.

obeikandl.com

وقد تكون رثاء لعظماء الإسلام وأبطاله المجاهدين في سبيله.

وقد تكون فخرًا بقيم هذا الدين وتعاليمه، وفضل الله -تعالى- على أصحابه وتكريمهم بالقرآن الكريم، والرسول الأمين، والفضل العظيم، والنصر المبين في الدنيا والآخرة.

وهذه الغاية النبيلة -وهي الانتصار لهذا الدين- لا تكاد تضيق عن غرض من الأغراض، إذا ما التزم المبدع بأحكام الإسلام وتعاليمه في فن القول.

وأقصى ما يتصور بعده عن تلك الغاية غرض كغرض الغزل مثلاً، يمكن أن يجد الشاعر الإسلامي له مندوحة فيه في التغزل العفيف بالمرأة المسلمة بما هي عليه من عفة وقيم إسلامية رفيعة.

أما ما كان على سبيل الهُيام البحت وبث الأشواق ومكابدة الحنين، فلا مانع في ذلك كله، بشرط أن لا يتعدى تلك الرفيقة التي يرتبط بها الشاعر بعلاقة الزواج ليس إلا.

ولا يجوز إشاعة شيء من ذلك ولا نشره ولا إطلاع الناس عليه؛ لأنه ضد الغاية التي نيط بها الشعر وسائر فنون القول في الإسلام، وهذا يجرنا إلى الشرط الثاني.

ثانيًا: السلامة من الإثم

إذا كان سمو الغاية وصحتها هو الشرط الأول لقبول الأعمال والأقوال؛ فإن الشرط الثاني هو صحة هذه الأعمال والأقوال وعدم فسادها، والمقصود بالصحة أن تكون هذه الأعمال والأقوال موافقة لأحكام هذا الدين الحنيف.

وفيما يختص بفنون القول في هذا الشرط ترد هذه النصوص الكريمة:

١- **﴿يأيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾**[١].

---

(١) سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١.

٢- ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(١).

٣- قوله ﷺ: "البذاء والبيان شعبتان من النفاق"(٢).

٤- قوله ﷺ: "إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مساوئكم أخلاقًا"(٣).

إن الإسلام قد أمر بالقول السديد وهو القول الصائب النافع، الذي يكون إما أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر أو ذكرًا لله -تعالى؛ وذلك لأن المرء يحاسب على كل لفظ يتلفظ به، فما من كلمة ينطق بها إلا ويتلقفها ملكان حاضران لا يغنيان عنه طرفة عين.

ويحسم النبي ﷺ هذه القضية في وضوح تام، حيث يقول: "كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو ذكر الله تعالى"(٤).

ومن ثم لا يذم النبي ﷺ البيان مطلقًا، بل يذمه إذا كان مقترنًا بالبذاء، فيجعلهما حينئذ شعبتين من النفاق.

ومن ثم فالغزل الفاحش، والهجاء الفاحش، والمدح الباطل، والهيام في الوصف بلا طائل ولا غرض صحيح، كل ذلك مما يحاسب المرء عليه، ومن ثم ينبغي عليه أن يتجنبه في كلامه شعرًا كان أو نثرًا، أدبًا كان أو كلامًا ككلام الناس فيما بينهم.

ثالثًا: وضوح الهوية الإسلامية

يظهر ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا...﴾(٥).

---

(١) سورة ق: ١٨.

(٢) تقدم تخريجه، وهو حديث صحيح كما في "صحيح الجامع" (٣٢٠١).

(٣) تقدم تخريجه قريبا، وهو صحيح بشواهده كما قال الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٧٥١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤١٢)، وأبو يعلى في "مسنده" (٧١٣٤)، والبخاري في "التاريخ" (١/٢٦١)، قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن يزيد بن خنيس"، قال المنذري في "الترغيب": "رواته ثقات وفي محمد بن يزيد كلام قريب لا يقدح وهو شيخ صالح انتهى".

(٥) الشعراء: ٢٢٧.

فالأديب المسلم شاعرًا كان أو ناثرًا لابد أن يتميز بهويته الإسلامية الواضحة، فهو مؤمن بالله تعالى، ذاكرًا له، منتصرًا لقصده، ولابد أن يظهر ذلك واضحًا في أدبه بحيث يتميز بذلك عن غيره.

فهذا هو النبي ﷺ ينشده كعب لاميته الشهيرة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

حتى يبلغ قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الهند مسلول

فينكر عليه النبي ﷺ قوله: "من سيوف الهند"، فيجعلها "من سيوف الله".

إن النبي ﷺ حريص على ألا يتميع الشاعر أو الأديب ولا يذوب في غيره؛ لأن أدبه وشعره إنما هو عنوان حضارة هذا الدين ومجده، فلابد أن يحمل هويته الإسلامية ويعبر عنها بكل عز وافتخار.

رابعًا: الصدق في الأداء

المراد بالصدق هنا هو صدق الأداء، وصدق الشعور أو هو الصدق الفني، فاشتراط الصدق هنا لا يمنع المبالغة الفنية الطريفة التي يؤيد بها الشاعر قضيته، ويخدم بها أغراضه الفنية.

فالصدق هنا إنما هو صدق الإرادة، والشعور، ومن ثم فقد ذم الله تعالى الشعراء الذين **﴿يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾**(1).

فهؤلاء إنما يتكلمون بلا تجربة ولا معاناة، ولذلك يأتي شعرهم تكلفًا محضًا مذمومًا.

إن الصدق هنا يعني أن يكون الشاعر ملتزمًا بالمبادئ التي يدعو إليها، ويكفي في ذلك مجرد الالتزام الخلقي الإرادي الداخلي، فمعنى الصدق هذا هو القناعة الذاتية للشاعر أو المبدع بما يدعو إليه من مبادئ وقيم، وهذا يرتبط بالشرط الأول؛ لأن الشاعر أو الأديب إذا لم يكن صاحب غاية سامية فلن يكون صادقًا في قوله، بل يكون

(1) الشعراء: ٢٢٦.

obeikandi.com

قوله مجرد زخرف يريد أن يصرف به وجوه الناس إليه، وفيه قال رسول الله ﷺ: "من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً"(١).

خامسًا: ترك التكلف

تلك النقطة السابقة ترتبط بالضرورة بهذه النقطة، فالصدق في التجربة والشعور يستدعي بالضرورة ترك التكلف في الأداء؛ ولأن القول حينئذ سوف ينشأ عن طبع مواتٍ، وقريحة متقدة، ونفس ثائرة مشتملة، ومن ثم فقد نفى الله تعالى عن نبيهﷺ التكلف، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾(٢)، وسمع النبيﷺ رجلاً يتكلم بالسجع ويتكلفه بغير ضرورة فزجره قائلاً: أسجعًا كسجع الكهان؟!

وقد ورد فيما سقناه من النصوص كثير من الأحاديث النبوية التي ينهى فيها النبيﷺ عن الثرثرة والتشدق والتفيهق.

والتشدق هو التقعر في الكلام وتكلف السجع والفصاحة فيه(٣)، والتفيهق هو ملء الفم بالكلام.

سادسًا: روعة الأداء

يشترط بعد ذلك كله روعة الأداء، وبراعة التصوير، وجمال العرض، وحسن اللفظ...إلخ.

فكل ما يساعد على إقناع المتلقي بالفكرة، وعرضها في أحسن صورة فهو مطلوب،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ص: ٨٦.

(٣) قال الطيبي: "ولا يدخل في الذم تحسين ألفاظ الخطب والمواعظ، إذا لم يكن فيها إفراط وإغراب؛ لأن المقصود منها تهييج القلوب إلى طاعة الله تعالى، ولحسن اللفظ في هذا أثر ظاهر" [شرف الدين الحسين بن عبدالله بن محمد الطيبي: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن- تحقيق: د. عبدالحميد هنداوي- مكتبة نزار الباز- مكة المكرمة- الطبعة الأولى- ١٤١٧هـ-١٩٩٧م- (٣١٠٦/١٠)].

والإسلام يحث عليه، ومن ثم فقد قال النبي ﷺ قولته السائرة المشهورة: "إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرًا" وقد كان الشعراء في زمان النبي ﷺ يلتزمون صون الأصول الفنية التي تواضع عليها العرب في شعرهم، ولم ينكر النبي ﷺ عليهم شيئًا من ذلك، بما في ذلك المقدمة الغزلية التي كانوا يبدأون بها القصائد جلبًا للأسماع وجذبًا للقلوب، ما لم يكن ذلك الغزل فاحشًا، ومادام هذا الغزل، موظفًا للمقصود، فهو وسيلة لا غرو في نفسه، وهو مقيد بكونه من الغزل العفيف المباح لا من الفاحش الصراح، ومن ثم فقد استمع النبي ﷺ قصيدة كعب بن زهير، ولم ينكر على كعب مقدمتها الغزلية التي مطلعها:

متيم إثرها لم يفد مكبولُ   بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ

وكم لحسان بن ثابت رضي الله عنه شاعر الرسول ﷺ من قصائد جرت على هذا النحو، ولم تستنكر عليه، من ذلك قصيدته المشهورة التي مطلعها:

وخيال إذا ما تغور النجومُ   منع النوم بالعشاء الهمومُ
وهن فهو داخل مكتومُ   من حبيب أصاب قلبك من
واهن البطش والعظام سئومُ   يا لقومي هل يقتل المرء مثلي
ويعلوها لجين ولؤلؤ منظومُ   همها العطر والفراش
عليها لأندبتها الكلومُ   لو يدب الحولي من ولد الذر

ومن ثم يتبين أن الإسلام قد قدم أسسا إسلامية نقدية أدبية متكاملة راعي فيها جودة الشكل والمضمون، وارتقى بها بالأدب إلى قمة سامقة جعلت له رسالة خالدة لا تنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

opeikandi.com

خامسًا الوسائل الأسلوبية:

- طريقة الدعوة بين العقلانية والوجدانية:

مـــن وسائل الدعوة الواقعة في إطار منهجها العام اختيار نوع الأسلوب الدعوي من حيث اختيار الخطاب العقلي التأملي أو الخطاب القلبي الوجداني.

القـــرآن الكريم ينوع خطابه وأسلوبه الدعوي بين الخطاب العقلي تارة وبين الخطاب القلـــبي الوجداني تارة أخرى وذلك حتى تملك الدعوة كل جوارح المدعو وجوانحه فيمتلئ بها قلبه وعقله فلا يجد مناصًا من اتباعها والتسليم لها.

فـــضلاً عـــن أن طباع الناس ونوازعهم تختلف بين من يُعنى بالعقل والمنطق والمحاجة ويهـــتم بتحريـــر الأمور تحريرًا عقليًا وضبطها بحجج المنطق وقواعده وبين من يعرض عن جفـــاف الجـــدال العقلي ومعاناته ويميل إلى ما ينفتح له قلبه وينشرح له صدره من جميل القول، وسحر البيان، وحلاوة المنطق الأخاذ، وحسن العرض، وجميل الخصال والصفات؛ لـــذا فقـــد نوع القرآن في طريقته الدعوية بين كلا النوعين مراعاة لحال الفريقين، ودفعًا للـــسأم والملـــل عـــن السامع، وحرصًا على تعدد وسائل الإقناع للمدعوين حرصًا على هدايتهم واستجابتهم بمختلف السبل.

١- الخطاب العقلي التأملي:

أ- القرآن مليء بالدعوة إلى التأمل والتفكر:

وهـــذا النوع من الخطاب يدعو إلى التفكر وإعمال العقل للإفادة من معطيات الآيات ســـواء كانت من نوع الآيات الكونية المقروءة في صفحات الكون المسطور بيد الإبداع والقـــدرة والحكمة، أو كانت من نوع الآيات القرآنية المتلوة في صفحات الكتاب الكريم الدالة على وحدانية الله تعالى وسائر صفاته وأسمائه الحسنى.

والقــرآن ملــيء بالدعوة إلى التعقل والتفكر[1]، ومليء كذلك بالآيات الداعية إلى التأمل في صفحة الكون والنظر في الآيات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى وإبداعه لهذا الكون، قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2].

ويقــول تعــالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

والآيات القرآنية تخاطب العقل تارة بالدعوة إلى النظر والتأمل كما في الآيات السابقة، وتارة بالاستدلال ببديهيات العقول كما يأتي بيانه.

ب- استخدام البديهيات العقلية:

مخاطبة العقل في القرآن كذلك تأتي باستخدام البديهيات العقلية كالمقارنة بين.

القيم الموجبة والقيم السالبة، حيث إن تفضيل القيم الموجبة على السالبة أمر مستقر في بديهيات العقول.

فمــن ذلك المقارنة بين من يملك ومن لا يملك لبيان أحقية المالك بالألوهية مثل قوله تعــالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا عَبْدًا مَمْلُوكًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا

---

(١) ﴿أَيَــوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[البقرة:٢٦٦].

﴿وَمَــا أَرْسَــلْنَا مِــنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٣-٤٤].

﴿قُــلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ:٤٦].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر:٢١].

(٢) يونس: ١٠١.

(٣) الأعراف: ١٨٥.

obeikandl.com

﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

وكالمقارنة بين من يخلق ومن لا يخلق لبيان استحقاق الخالق سبحانه للألوهية وحده كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وكالمقارنة بين من يهدي ومن لا يهدي إلا أن يهدي لبيان استحقاق الهادي سبحانه للألوهية كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(٣).

وكالمقارنة بين من يَرْزُق ويُطعِم ومن يُطْعَم ويُرْزَق ولا يُطعِم ولا يَرْزُق، لبيان استحقاق الرازق سبحانه للألوهية وحده، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

وكالمقارنة بين من له سائر صفات الكمال والجلال ومن ليس له تلك الصفات بل يتصف بعكس ذلك من صفات النقص والعجز، لبيان استحقاقه سبحانه للربوبية والألوهية وحده، وذلك كما في قوله تعالى عن الشركاء: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ﴾(٥).

جـ) استخدام الأقيسة المنطقية الفطرية:

المراد بالأقيسة المنطقية الفطرية هي الأقيسة العقلية المستقرة والثابتة في الفطر والنفوس والعقول كترتيب النتائج على المقدمات، والاستدلال بالمعلوم على المجهول اللازم عن ذلك المعلوم، ونحو ذلك من الأقيسة التي لا تحتاج إلى دراسة المنطق ولا علم الكلام والجدل

(١) النحل: ٧٥.

(٢) النحل: ١٧.

(٣) يونس: ٣٥.

(٤) الأنعام: ١٤.

(٥) الأعراف: ١٩٥.

بصعوبات تلك العلوم وتعقيداهما التي أدت إلى تعقيد كثير من العلوم، وأدت إلى صد كثير من الناس عن سبيل التعلم، ولا نزال نعاني من آثار اندساسها في مختلف العلوم العربية والإسلامية إلى يومنا هذا.

فاستخدم القرآن الكريم الأقيسة المنطقية والبراهين العقلية دون مغالاة ولا تعقيد.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[١].

وهذا الدليل يسميه البعض بدليل التعارض، أي لو كان في الكون إلهان لتعارضا فإذا تعارضا تساقطا أو غلب أحدهما الآخر فصار له الحكم والغلبة فينتفي بذلك أن يكون للكون إلهان في آن واحد، وهذا المعنى يعبر عنه القرآن الكريم في أيسر عبارة لا تعنى بها العقول، ولا تنفر منها القلوب كما ترى.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ**﴾[٢].

وهذا الدليل يعتمد كما ترى على قياس الأولى، وهو أن الذي خلق الشيء وأوجده أول مرة هو قادر على إعادته بقياس الأولى؛ إذ إن الإعادة أهون من البداءة.

وهذا ما يقرره القرآن في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٣].

---

(١) الأنبياء: ٢١-٢٢.

(٢) يس: ٧٨-٨١.

(٣) الروم: ٢٧.

obeikandi.com

٢- الخطاب القلبي الوجداني في القرآن الكريم:

يهتم القرآن بمخاطبة القلب والوجدان والشعور كما يهتم بمخاطبة العقل، وهو في مخاطبته القلب والشعور يعتمد على وسيلتين أساسيتين يقرن بينهما في غالب الأحوال، أو يغلب إحداهما على الأخرى بحسب حال المدعوين.

وهاتان الوسيلتان هما: الترغيب والترهيب.

أولاً: الآيات الجامعة بين الترغيب والترهيب:

قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**﴾[١].

حيث نلاحظ أن الآيات قد جمعت بين النذارة والبشارة وقدمت النذارة وكررها وذلك مناسبة لحال المدعوين المعرضين عن دعوة النبي ﷺ في مكة المعاندين له.

وإن كان الأصل في القرآن تقديم البشارة على النذارة على العموم، ما لم يقصد رعاية حال خاص من أحوال المدعوين، والدليل على ذلك كثرة من الآيات مثل قوله تعالى: ﴿**يأيها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾[٢].

حيث بدأت الآية في وصف النبي ﷺ بالبشارة قبل وصفه بالنذارة لأن هذا هو الترتيب الطبيعي في الدعوة أن تبدأ بالبشارة قبل النذارة ما لم يقتض الحال غير ذلك.

والدليل على ذلك أن الله تعالى حينما انتدب موسى لدعوة فرعون أمره بتقديم الترغيب والبشارة واللين قبل النذارة والترديب فقال له سبحانه: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾[٣].

---

(١) الكهف: ١-٤.

(٢) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٣) طه: ٤٣-٤٤.

ثانيًا: الآيات التي تغلب البشارة:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٢).

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾(٣).

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٤).

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٥).

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾(٦).

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلا كَبِيرًا﴾(٧).

ثالثًا: الآيات التي تغلب النذارة:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(٨).

---

(١) الزمر: ١٧.

(٢) فصلت: ٣٠.

(٣) التوبة: ٢١.

(٤) التوبة: ١١١.

(٥) الشورى: ٢٣.

(٦) يونس: ٢.

(٧) الأحزاب: ٤٧.

(٨) النساء: ١٣٨.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1].

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[2].

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[3].

ومن الأمثلة التي اجتمعت فيها طريقتا الخطاب القلبية الوجدانية بنوعيها من حيث الترغيب والترهيب، والعقلية التأملية بأنواعها من حيث التأمل والبديهة والاستدلال سورة نوح عليه السلام في بيان دعوته لقومه، وذلك في قوله عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلا فِجَاجًا﴾.

فنجد أسلوب الترغيب واضحًا فيما وعدهم به إن استغفروا الله تعالى وتابوا إليه من إرسال السماء بالخير العميم مع كثرة أموالهم وأولادهم وتفجير الأنهار والجنات من تحتهم .. إلخ.

ثم لما لم ينجح ذلك الأسلوب معهم لقسوة قلوبهم وإعراضهم نحا نحو زجرهم وتأنيبهم وتقريعهم فسلك مسلكًا حسنًا من مسالك الترهيب حيث قال: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ثم عمد إلى طريقة الخطاب العقلي بدعوتهم إلى النظر والتأمل في مخلوقات الله

---

(١) هود: ٢٥.

(٢) هود: ٦٤.

(٣) هود: ٩٣.

تعالى للاستدلال بها على قدرته ووحدانيته وسائر صفات ربوبيته وألوهيته سبحانه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا...﴾.

وهو في ذلك يجمع بين دعوتهم إلى النظر والتأمل في صفحة الكون والاستدلال ببديهات العقول وأقيستها المستقيمة المتفقة مع الفطرة السليمة.

منهج الدعوة بين العقلانية والوجدانية وتطبيقاته في السنة النبوية:

لقد حرص النبي ﷺ من أول يوم على تنويع خطابه الدعوي بين العقلانية والوجدانية بحسب أحوال المدعوين، وبحسب المواقف والظروف المختلفة.

فحينما قرر ﷺ أن يجهر بالدعوة إلى الله قرر أن يسبق هذا الجهر بتقرير قومه بصدقه وأمانته حتى يجعل ذلك كالمقدمة المنطقية التي تقود العاقل إلى التسليم بالنتيجة التي لا تتخلف؛ فإذاكانت المقدمة (إن محمدًا لا يكذب)، كانت النتيجة هي: (صدق دعواه في رسالته).

ولذلك بدأ ﷺ حينما جمع قومه بقوله: "إن الرائد لا يكذب أهله. أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد. فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾"[١].

وحينما بين النبي ﷺ أكبر الكبائر منفرًا من الشرك ومحذرًا منه ومعظمًا إياه نجده يعتمد على ما استقر في النفوس من تميز الأشياء واستبانتها بالجمع بين الأمور المتضادة المتقابلة فلذا نجده يبين ذلك بقوله ﷺ: "أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك" لمن سأله: أي الذنب أعظم؟[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"، باب: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٤٧٧٠)، ومسلم في "الإيمان"، باب: في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في "التوحيد"، باب: قول الله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾(٧٥٢٠)، ومسلم في "الإيمان"، باب: كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها (٨٦).

obeikandl.com

فنجد الأسلوب العقلي المنطقي المعتمد على بديهات العقول وما استقر فيها من قبح التناقض والنفرة منها، واستبانة الفروق بين المتضادات ووضوح الحقائق بذلك، حيث يظهر قبح الشرك واضحًا جليًّا حينما يقارن المرء بين اتخاذ إله مع الله ينسب إليه الفضل ويقدم إليه الشكر، ويجحد حق الله سبحانه وهو الخالق الرازق، والآلهة الباطلة لم تخلق و لم ترزق.

كذلك يلجأ النبي ﷺ إلى الأقيسة المنطقية الفطرية المسلمة في العقول، وذلك كما في قصته ﷺ مع الشاب الذي جاء يستئذنه في الزنا فقال له ﷺ: أتحبه لأمك؟ أتحبه لأختك؟ أتحبه لابنتك؟ ... إلخ[1].

ليقرر له بطريق القياس الواضح الجلي أنه كما أنه لا يحب الزنا لأحد من ذويه وخاصته فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لبناتهم ولا لأخواتهم.. إلخ فكيف يأتي إلى الناس ما يكره لنفسه؟.

وكيف يطلب من النبي ﷺ أن يرخص له في أمر إن رخص فيه فقد فتح عليه من أبواب الأذى والعار أضعاف أضعاف ما يناله من المتعة الحرام، وذلك لأن الناس سيريدون منه القصاص والمماثلة في بناته وأمه وأخواته.. إلخ إن رخص لهم بمثل ما رخص له.

أما اعتماد دعوة النبي ﷺ على المخاطبة الوجدانية وتنويع ذلك بين الترغيب والترهيب فهو أكثر وأشهر من أن يستدل له ولقد صنف عدد من العلماء كتبًا فيما ورد في سنة النبي ﷺ من الترغيب والترهيب[2].

حيث يأتي الترغيب في سنة النبي ﷺ في جميع أبواب الخير والفضائل ويأتي الترهيب

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٥/٢٥٦)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٤/٣٦٢)، وذكره الهيثمي في "المجمع" (١/١٢٩)، وقال: "رواه أحمد والطبراني في "الكبير" ورجاله رجال الصحيح". وقال الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٣٧٠): "وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح".

(٢) انظر على سبيل المثال: الترغيب والترهيب للإمام المنذري.

كذلك في جميع أبواب المكروهات والمحرمات والرذائل.

منهج الدعوة من حيث التأثير البياني والفكري والثقافي:

يعتمد منهج الدعوة في تأثيره البياني على رعاية حال المخاطب ومن ثم فهناك ربط واضح بين منهج الدعوة في تشكيله الخطابي وبين حال المدعوين الذين تتجه هذه الدعوة إليهم.

وقد سبق أن ألقينا الضوء على الواقع العربي الجاهلي قبل مجيء الإسلام الذي توجهت إليه الدعوة الإسلامية في مهدها، هذا الواقع الذي يعم فيه الشرك بالله تعالى في صورة عبادة الأوثان واتخاذ الأنداد من دون الله تعالى والذي يسيطر فيه السادة الأقوياء على العبيد الضعفاء، وتسود فيه كثير من العادات والتقاليد السيئة من شرب الخمر ووأد البنات وقتل النفس التي حرم الله وغير ذلك من المعاصي والفواحش.

لذا ركزت الدعوة في مضمونها ومقاصدها الأساسية في هذا الوقت على الدعوة إلى التوحيد وتقوى الله تعالى واستمر ذلك ثلاث عشر عامًا هي مدة الدعوة المباركة في مكة المكرمة.

ومع استقرار العقيدة في المدينة ودخول الناس في دين الله تعالى أفواجًا انتقل تركيز الدعوة على الأحكام التي هي واجبات الإيمان، كما اتجهت إلى بناء الأخلاق وتنظيم المعاملات، وإرساء الأسس والقوانين المدنية باختلاف أنواعها.

كذلك فقد سبق أن ألقينا الضوء على الناحية العلمية والثقافية والبيئية العربية التي تشكل عقلية العربي الجاهلي في ذلك الوقت ومن ثم رأينا كيف ركّز القرآن الكريم وركزت السنة النبوية على رعاية هذه العقلية العربية الأمية الساذجة فجاءت حجج التوحيد ودلائله مناسبة لهذه العقلية:

١- من حيث الوضوح واليسر وعدم التعقيد.

٢- من حيث استلهام عناصر البيئة العربية.

٣- من حيث إجمال الإشارات العلمية.

٤- من حيث توظيف العلوم الثابتة لدى العرب.

وقد سبق إفاضة الحديث عن الوضوح واليسر في عرض دلائل العقيدة، وذلك عند الحديث عن الدعوة الإسلامية بين العقلانية والوجدانية، في أثناء الحديث عن مظاهر الخطاب العقلي التأملي.

أما بالنسبة لاستلهام عناصر البيئة فنلاحظ أن الصور القرآنية قد رسمت من وحي هذه البيئة، ووظفت فيها عناصرها توظيفًا جيدًا بما يتناسب مع عقلية العربي الذي تربى في هذه البيئة، ونلمح ذلك في نحو قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ**﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**﴾(٢).

حيث نلمح في هذه الصورة وغيرها كثير في القرآن الكريم عناصر هذه البيئة الصحراوية مثل (السماء – الأرض – الجبال – الشمس – القمر – المطر – النخيل – الإبل ... إلخ).

ولما كانت للإبل أهمية خاصة في حياة العربية لا جرم فقد بدأت بها الآيات في سورة الغاشية.

وحينما تعرض القرآن للإشارات العلمية، فإننا نلاحظ أنه حينما يكون الحديث عن العلوم المعروفة والثابتة لدى العرب مثل الفصاحة والبلاغة والبيان والعلوم الطبيعية الأخرى، والمطر والرياح والجبال ... إلخ، فإننا نجد أن القرآن يتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل يتطابق مع علوم هذا العربي ومعارفه.

---

(١) الغاشية: ١٧-٢٠.

(٢) ق: ٦-١١.

فمن ناحية الفصاحة والبيان فقد بلغ القرآن في ذلك حدّ الإعجاز، ولذلك بلغ النبيﷺ في فصاحته وبلاغته حدًّا فاق بلغاء العرب جميعًا.

فالقرآن قد أعجز العرب بحلاوة منطقه، وعزوبة ألفاظه، وجمال نظمه وروعة صوره، وجمال جرسه وموسيقاه الأمر الذي جعل مشركي العرب الجاحدين بالقرآن والنبوة يقرّون بإعجاز هذا الكلام وشدة تأثيره على نفوسهم حتى وصفوه بالسحر، وقصة الوليد بن المغيرة في ثنائه على القرآن مشهورة في ذلك، وقصة الذين كانوا يسترقون الاستماع لقراءةَ النبي ﷺ سرًّا، ثم يتواعدون على ألا يفعلوا ثم يعودون للاستماع مشهورة كذلك.

والشاهد أن القرآن قد بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة رعاية لحال هؤلاء المخاطبين الذين كانوا على درجة عالية من الفصاحة والبيان، وطلبًا للتأثير في نفوس المخاطبين وقد أكد النبيﷺ في سنته على أهمية التأثير البياني ورعايته فقال ﷺ: "إن من البيان لسحرًا"[(١)].

والنبي ﷺ قد بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، وقد شهد له بذلك كل من سمعه.

ولا شك أن لفصاحة الكلام وبلاغته وجمال نظمه وروعة تصويره، وعذوبة جرسه وموسيقاه لاشك أن لذلك كله تأثيرًا كبيرًا باستمالة المدعو للسماع، وترغيبه فيه، فلذلك كله بلغ القرآن حد الإعجاز في ذلك وتلته السنة النبوية الشريفة في هذا الأمر.

وأما من جهة رعاية القرآن الكريم للعلوم والمعارف الأخرى التي وقف عليها العرب بحكم بيئتهم كعلم النجوم والأمطار والرياح والجبال ونحو ذلك، فقد راعى القرآن الإشارة إلى تلك الأمور بقدر كبير من الوضوح والإفصاح كذلك.

من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿**وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا**﴾[(٣)].

---

(١) تقدم تخريجه، وهو صحيح.

(٢) النحل: ١٦.

(٣) فصلت: ١٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[4].

أما حينما يشير القرآن إلى العلوم المجهولة لدى العرب فإنه يجمل الحديث عن هذه الأمور في إشارات مجملة يفقهها من بعدهم ممن تتفتح لهم الرؤى في الآفاق وفي أنفسهم، فيجمل القرآن هذه الإشارات حتى لا يصدم عقول العرب الساذجة فيكون ذلك سببًا من أسباب الصد عن الهداية فعلى سبيل المثال حينما يشير القرآن إلى وسائل النقل فإنه يوجز الإشارة إلى وسائل النقل الحديثة على اختلاف أنواعها ولا يصدم عقول العرب بذكر السيارة والقطار والطائرة والصاروخ... وهلم جرًّا، ولكننا نجد هذا الإجمال المعجز للأولين والآخرين في قوله تعالى:﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[5].

ففي قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى كل ما يخلق الله تعالى من وسائل النقل الحديثة دون أن يصدم عقول العرب ومعارفهم المتواضعة والأمثلة كثيرة لا يتسع المقام لبسطها.

---

(١) الصافات: ٦.

(٢) الحجر: ٢٢.

(٣) النور: ٤٣.

(٤) فاطر: ٢٧.

(٥) النحل: ٨.

obeikandl.com

مظاهر التطبيق في السنة النبوية:

وقد راعت السنة النبوية ذلك كله فالنبي ﷺ كان حريصًا على مخاطبة الناس على قدر عقولهم فكان يراعي عقلية البدوي والحضري والشيخ الفاني والشاب الجلد، والمرأة والصبي وغـــير ذلك وفي سنته المحفوظة لدينا كثير من التطبيقات فنراه يتسع صدره للأعرابي الذي يبول في المسجد فيقول: "لا تزرموه"(١)، ويتسع صدره للذي يتكلم في الصلاة(٢)، ويتسع صدره للذي يأخذ بتلابيبه ويسأله من مال الله(٣).

---

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رضي الله عنه- أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لا تُـــزْرِمُوهُ ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ". [أخرجه البخاري في "الأدب"، باب: الرفق في الأمـــر كله (٦٠٢٥)، ومسلم في "الطهارة"، باب: وجوب غسل البول وغيره من النجاسات (٢٨٥)].

(٢) عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ –رضي الله عنه- قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُـــلٌ مِـــنْ الْقَوْمِ. فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُـــرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَـــلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلا ضَرَبَنِي وَلا شَتَمَنِي قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [أخرجه مسلم في "المساجد ومواضع الصلاة"، باب: تحريم الكلام في الصلاة (٥٣٧)].

(٣)وهـــو حديث أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه- وفيه: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْلِسُ مَعَنَا فِي الْمَجْلِسِ يُحَدِّثُنَا فَإِذَا قَامَ قُمْنَا قِيَامًا حَتَّى نَرَاهُ قَدْ دَخَلَ بَعْضَ بُيُوتِ أَزْوَاجِه فَحَدَّثَنَا يَوْمًا فَقُمْنَا حِينَ قَامَ فَنَظَرْنَا إِلَى أَعْرَابِيٍّ قَدْ أَدْرَكَهُ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِه فَحَمَّرَ رَقَبَتَهُ- قَالَ أَبو هُرَيْرَةَ وَكَانَ رِدَاءً خَشِنًا- فَالْتَفَتَ فَقَالَ لَهُ الأَعْرَابِيُّ احْمِلْ لِي عَلَى بَعِيرَيَّ هَذَيْنِ فَإِنَّكَ لا تَحْمِلُ لِي مِنْ مَالِكَ وَلا مِنْ مَالِ أَبِيكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لا أَحْمِلُ لَكَ حَتَّى تُقِيدَنِي مِنْ جَبْذَتِكَ الَّتِي جَبَذْتَنِي فَكُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ الأَعْرَابِيُّ وَاللَّهِ لا أُقِيدُكَهَا فَذَكَرَ الْحَدِيثَ قَالَ ثُمَّ دَعَا رَجُلا فَقَالَ لَهُ احْمِـــلْ لَهُ عَلَى بَعِيرَيْهِ هَذَيْنِ عَلَى بَعِيرٍ شَعِيرًا وَعَلَى الآخَرِ تَمْرًا ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ انْصَرِفُوا عَلَى بَـــرَكَةِ اللَّـــهِ تَعَالَى". [أخرجه النسائي في "الكبرى" (٤/٢٢٧)، وأبو داود (٤٧٧٥)، والحديث ضعفه الشيخ الألباني في "ضعيف النسائي" (٤٧٧٦)].

ويسر على من لا يستطيع حفظ الدعاء الكثير بكلمات يسيرة، كما قال للرجل الذي قال له إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فسأله عما يقول، فأخبر أنه يسأل الله الجنة، ويعوذ به من النار، فلم يزده النبي ﷺ ما يثقله بل قال له (حولها ندندن)(١).

والأمثلة كثيرة لا تحصى في الاستدلال لمخاطبة النبي ﷺ الناس على قدر عقولهم، وهذا مـــا ورثـــه أصحابه عنه ﷺ في حكمة الدعوة، فعن علي ﷺ: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتحبون أن يكذب الله ورسوله"(٢).

وفي الأثـــر كـــذلك: "ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"(٣).

كـــذلك نجـــد رعاية القرآن والسنة للناحية النفسية للمدعوين في هذه البيئة، فمن خلال الإطلالة السابقة على حالة العرب قبل الإسلام نعرف ما كان عليه العربي من المزاج النفسي المتقلب بتأثير تلك البيئة الصحراوية المتقلبة فبين التقلب بين جفاف البيئة وحرارة القـــيظ تارة وبرد نسيمها وطيب هوائها تارة أخرى يتقلب مزاج العربي في هذه البيئة بين الخشونة والجفاف والغلظة والقسوة، وبين اللين والمروءة والكرم والرحمة.

بين ثورة العقل واحتدامه، وغضب النفس وانفعالها ورقة الوجدان والمشاعر والانفعال لعناصر الجمال في الطبيعة والكون.

ومن ثم جاءت الأساليب القرآنية متنوعة بين الترهيب والترغيب، وبين الزجر والتأنيب والتقـــريع والتوبيخ وبين مخاطبة المشاعر والارتقاء بالنفس وترغيبها في ملكوت السموات والأرض.

كـــذلك فقد جاءت تطبيقات هذا الأمر في السنة النبويـــة في حكمـــة النـــبي ﷺ في

---

(١) أخرجه أحمد في "مسنده" (٤٧٤/٣)، وأبو داود في "سننه" (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبيﷺ، وابـــن ماجـــه (٩١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. والحديث صححه الشيخ الألباني في "صحيح الجامع" (٣١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في "العلم"، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم (١٢٧).

(٣) أخرجه مسلم في "المقدمة" (٦٣/١) ط. الشعب.

دعـــوته وتغليـــبه الرفق واللين والرحمة في إقناع المخاطبين والمدعويـــن، وعـــدم غضبه واشـــتـــداده علـــى من يقدم على المعصية عن فهم وبينة فيكون غضب النبي ﷺ لانتهاك حرمات الله.

فمن أمثلة لينه ورفقه ﷺ ما سبق ذكره من حسن تصرفه ﷺ مع الرجل الذي أغلظ له في السؤال، وحسن معاملته للأعراب الجفاة، وحكمته ورحمته مع الشاب الذي جاء يسأله أن يرخص له في الزنا(١).

ومـــن أمثلـــته تغليظه ﷺ وشدته اشتداده ﷺ على أسامة حينما جاءه ليشفع في المرأة المخزومية التي سرقت(٢).

وغـــضبه ﷺ واشـــتداده على الثلاثة الذين خلفوا، وغضبه ﷺ على أسامة حينما قتل رجلاً بعد أن قال لا إله إلا الله(٣).

وقـــد جاء ذلك كله بناء على وعي تام من النبي ﷺ بطبيعة قومه ومزاجهم وظروفهم وأحوالهم المختلفة، وقد أدى ذلك كله إلى حسن تصرف النبي ﷺ وحكمته في دعوته.

ضرورة التماثل أو التقارب الفكري والثقافي بين الداعي والمدعوين:

لا جرم كان وعي النبي ﷺ بظروف بيئته وأحوال المخاطبين من جميع النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية والثقافية والنفسية واللغوية والبيانية ... إلخ.

كـــان لذلك كله تأثيره الحسن في إحداث نوع من التماثل الفكري والثقافي تحقق به معـــنى الآيـــة الكريمة على أكمل وجه في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾(٤).

---

(١) تقدم كل ذلك قريبًا.

(٢) أخـــرجه الـــبخاري في "أحاديث الأنبياء" (٣٤٧٥)، ومسلم في "الحدود"، باب: قطع السارق الشريف وغيره (١٦٨٨).

(٣) أخرجه البخاري في "الديات" (٦٨٧٢)، ومسلم في "الإيمان"، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٦).

(٤) إبراهيم: ٤.

وذلــك أن معنى اللسان يمكن أن يتسع كما سبق أن بينا ليشمل جميع معارف العصر وظــروفه المؤثــرة في التخاطب وانتقال الرسالة الدعوية بين الداعي والمدعو ولهذا نجحت دعوة النبي ﷺ إلى أبعد مدى بقدر تحقق هذا التقارب والتماثل الفكري والثقافي بين النبي ﷺ وقــومه فضلاً عن التفوق المعرفي التام للنبي ﷺ بما علمه الله تعالى وفتح عليه من العلوم والمعارف مما لا يقدر على تعلمه إلا خاتم الأنبياء والمرسلين.

سادسًا: الوسائل المادية:

أولا) القوة الاقتصادية: من حيث التأثير بتقديم النفع والمساعدة للمدعوين:

لا جــرم كــان مــن وســائل الدعوة كذلك التأثير في نفوس المدعوين بتقديم النفع والمساعدة لهم، وقد ضرب النبي ﷺ في ذلك أروع الأمثلة وشهد له القرآن بذلك[(١)].

فمــن الأمــثلة على ذلك أن رجلاً جاء يسأل النبي ﷺ فأعطاه غنمًا بين جبلين فكان ســببًا في هداية قومه تأثرًا بأخلاق النبي ﷺ حيث رجع إلى قومه وهو يقول: "جئتكم من عند رجل يعطي عطاء من لا يخشى الفقر"[(٢)].

ومــن ذلــك: ما أخرجه البخاري عن عبدالله بن زيد بن عاصم قال لما أفاء الله على رسوله يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا فكأنهم وجدوا إذ لم يــصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنــتم متفــرقين فــألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي..."الحديث. وفيه فقال: أترضون أن يذهب الناس بالشاه والبعير وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم"[(٣)].

---

(١) علــى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْــبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾.

(٢) أخــرجه مــسلم في "الفــضائل"، باب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه (٢٣١٢)، ولفظه: "فإن محمد يعطي عطاء لا يخشى الفاقة".

(٣) أخــرجه الــبخاري في "المغــازي"، بــاب: غــزوة الطائف- (٤٣٣٠)، ومسلم في "الزكاة" (١٠٦١).

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إلي فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنا فقال أو مسلمًا فسكت قليلا ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي فقلت: ما لك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمنا فقال أو مسلمًا ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي وعاد رسول الله ﷺ ثم قال: يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار"(١).

وهذا كله وإن كان خارجًا عن حدّ المؤثرات المباشرة فإنه من المؤثرات المعينة على إلانة قلب المدعو، وحسن التأثير فيه بالاستجابة لهذه الدعوة فمن ثم أشرنا إليه هنا، وقد سبق الإشارة إليه في الوسائل الآلية المساعدة.

ثانيا) القوة العسكرية بين الصبر على الأذى والأخذ بالقوة:

الدعوة الإسلامية مأمورة بإعداد القوة والأخذ بأسباها في جميع المراحل بحسب الاستطاعة، وهذا لا ينافي الأمر بالصبر واحتمال الأذى من أعداء الدعوة في مرحلة البيان حتى تكسب تعاطف الناس، وحتى تتمحص رسالتها للكشف عن الحقيقة والدعوة إلى الحق وحتى لا يظن بها الظنون بابتغاء نوع من المنافع الدنيوية المادية العاجلة ومع ذلك فهي مأمورة بالأخذ بأسباب القوة في جميع الأحوال لقوله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾**.

ولكن في مرحلة البيان لا يزيد الأمر عن إعداد القوة دون استخدامها بخلاف مرحلة التمكن واستقرار الدولة الإسلامية فإنها يشرع لها استخدام القوة للدفاع عن الدعوة الإسلامية في وجه أعدائها والتمكين لها، وصد ودحر كل من يقف في سبيل إيصالها إلى الناس، كل ذلك بما لا يتناقض مع قواعد الحكمة والنظر في ميزان المصالح والمفاسد، وعدم التعجل لكسب أي مكاسب سياسية أو مادية، بل المقياس الأول هو هداية الناس، وتبليغ هذا الدين.

---

(١) أخرجه البخاري في "الإيمان"، باب: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة (٢٧)، ومسلم في "الإيمان"، باب: تألف قلب من يخاف على إيمانه (١٥٠).

obeikandl.com

وقـــد كانت سنة النبي ﷺ خير تطبيق لحكمة الدعوة في هذا الأمر امتثالاً لتوجيهات القـــرآن الكريم في ذلك فقد كان النبي ﷺ وأصحابه ينالهم الأذى من المشركين في بادئ الأمـــر وكانت التوجيهات القرآنية تأمرهم بالعفو والصفح **﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾**(١).

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٢).

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾(٣).

والآيات في ذلك كثيرة، ثم نسخت تلك الآيات بآية السيف والآيات المشابهة:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٤).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾(٥).

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٦).

ورغـــم قـــوة الـــنبي ﷺ في المديـــنة فكان يعمل قاعدة الحكمة والموازنة بين المصالح والمفاســـد في التعامل مع المناوئين من اليهود والمنافقين والعرب حتى تستوي قوة الدولـــة في المديـــنة، وذلك عملاً بتوجيهات القرآن الكريم حيث أمره بالعفو عن المنافقـــين فـــي

---

(١) البقرة: ١٠٩.

(٢) آل عمران: ١٨٦.

(٣) المزمل: ١٠.

(٤) البقرة: ١٩٠.

(٥) الحج: ٣٩.

(٦) التوبة: ٢٩.

بادئ الأمر والإعراض عنهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا﴾[1]، أما بعد تمكن الدولة فقد جاء الأمر بتتبعهم وقتالهم وقطع دابرهم والإغلاظ لهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا﴾[2].

وصالح النبي ﷺ اليهود وعاهدهم في بادئ الأمر ثم لما نقضوا عهدهم قاتلهم وأجلاهم عن المدينة.

وهكذا كان أخذ النبي ﷺ بأسباب القوة حماية للدعوة الإسلامية وتمكينًا لها، مع العمل بميزان الحكمة في ذلك والنظر قاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد.

---

(١) النساء: ٦٣.

(٢) الأحزاب: ٦٠-٦١.